تاريخ ما بين السطور
جوبلز .. شجاعة أسطورية

رمضان مصطفى سليمان

حين صمت الصوت،
حوار مع الظل في نهاية العالم

جاءت تلك اللحظة التي بدا فيها كأن التاريخ نفسه قد توقف ليلتقط أنفاسه ، لا ليُصدر حكمًا نهائيًا ، بل ليضع الكلمة موضع الاختبار. الكلمة التي نُطقت ذات يوم في نشوة الخطب ، وتحت أضواء الجماهير ، وعلى منصات الوهم الجماعي . وحين جاءت ساعة الامتحان ، لم يجد التاريخ صاحبها ناكصًا ولا متراجعًا ، بل ثابتًا على وعده ، أمينًا لِما قال ، ولو كان الثمن حياة كاملة تُدفن تحت أنقاض مدينة محترقة.

في ذلك الركن الأخير من برلين، حيث تهاوت الإمبراطورية الثالثة كما تتهاوى الأساطير حين تفقد من يؤمن بها ، وقف دكتور بول جوزيف جوبلز ، الرجل الهزيل ، القصير ، المعتل الجسد ، الضخم الظل. لم يكن بطلاً بالمعنى الأخلاقي ، ولا قديسًا في ميزان الإنسانية ، لكنه كان ـ في نظر التاريخ البارد ـ ظاهرة نادرة: عقلٌ آمن بما صنع ، حتى النهاية.

لم يجد هتلر ، ولا ألمانيا التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، في تلك التضحية شيئًا ينقذهم من السقوط. لكن الدلالة كانت أعظم من النتيجة ؛ دلالة على ما كان يسكن كيان هذا الرجل من شجاعة نفسية مظلمة ، شجاعة لا تُقاس بنُبل الغاية ، بل بصرامة الالتزام. شجاعة تذكّر ـ في قسوتها ـ بأساطير الفايكنغ ، وبقبائل المغول الذهبية ، حيث لا رجوع بعد القسم ، ولو كان الطريق إلى الهاوية.

*

كان جوبلز يدرك ، في أعماقه ، هشاشة جسده ، لكنه آمن بعظمة عقله. في حواراته الداخلية ، التي لم يسمعها أحد ، كان يقول لنفسه:

الجسد ؟ مجرد وعاء. الكلمة هي الخلود.

ومنذ أن اعتلى منصب وزير الدعاية ، لم يعرف السكون. قبل الحرب وأثناءها ، كان يحفر في الوعي الألماني نفقًا طويلًا من السرديات ، يملؤه بالوثائق ، بالأرقام ، بالمنطق الملتوي ، وبالأمل المشحون بالغضب. لم يكن يخاطب العقول وحدها ، بل الغرائز ، الذاكرة الجريحة بعد فرساي ، الإحساس الجمعي بالمهانة.

في إحدى لياليه ، وهو يقلب أوراق خطبه ، تمتم:

لم أسرق منهم شيئًا، أنا فقط أعطيتهم تفسيرًا لما فُقد.

وكان يعلم أن التفسير ، حين يُصاغ بمهارة ، يصبح أقوى من الحقيقة.

*

أسماه الأمريكيون : **رائد فن الإعلام الحديث** . لم يكن الوصف مجاملة ، بل اعترافًا بقدرة خصم. أما الفرنسيون ، فقد أطلقوا عليه ـ بمرارة لا تخلو من خوف ـ :**أخطر رجل في النظام النازي** .كان عدوهم الأول ، حتى قبل هتلر ، لأن هتلر كان الرمز ، أما جوبلز فكان المُحرّك.

وحين قال في إحدى خطبه الشهيرة:

ألمانيا لا تعبأ برخاء الشعب الفرنسي ، فذلك بقايا أساطير عفنة ، ستنتهي آثارها تحت أقدام الحضارة الآرية ،

لم يكن يتحدث فقط إلى جماهيره ، بل كان يوجّه سهامه إلى مستقبل كامل . كلماتٌ لم يغفرها له الفرنسيون ، لا لأنها جرحتهم فحسب ، بل لأنها كشفت إلى أي مدى يمكن للكلمة أن تتحول إلى سلاح إبادة معنوية.

وفي أعماقه، كان يعلم خطورة ما يفعل . في حوار داخلي خافت ، ربما في إحدى ليالي القصف، تساءل:

هل الكلمة بريئة ؟ أم أني أحمّلها ما لا يُحتمل ؟

ثم أجاب نفسه بلا تردد:

لا براءة في التاريخ ، هناك فقط منتصرون ومهزومون.

*

أما الإنجليز ، فقد كانوا يرونه من زاوية أخرى. همس ونستون تشرشل ذات يوم في أذن الأدميرال مونتباتن:

لو كان للحلفاء رجل مثل هذا الساحر الأعرج ، لما خسرنا لا في السلم ولا في الحرب.

كان اعتراف خصم يعرف قيمة العقول ، حتى حين تكون معادية. لكن تشرشل ، بخبرته ، كان يدرك أيضًا أن عبقرية جوبلز لم تكن منفصلة عن مأساويتها ؛ فالعقل الذي يستطيع تعبئة أمة ، يستطيع كذلك أن يقودها إلى الخراب.

أما هتلر، فكان إيمانه بجوبلز إيمانًا شبه ديني. قال عنه:

جوبلز نموذج الرجل المتفوق.

و كان جوبلز ، في داخله ، يشعر أنه ليس مجرد تابع ، بل شريك في الحلم ، وفي الكابوس.

*

وحين جاءت الأيام الأخيرة ، لم يكن فيها من ضجيج الخطب شيء . لم تعد الجماهير موجودة . لم تعد المنصات قائمة . بقي الصمت ، وبقي السؤال الأكبر.

في المخبأ ، حيث اختنق الهواء برائحة بارود النهاية ، دار حوار صامت بينه وبين زوجته ، وبينه وبين أطفاله ، وبينه وبين نفسه.

ذهل كان كل هذا يستحق؟

سؤال لم يُجب عنه بصوت مسموع. لكنه أجاب بالفعل.

لم تكن نهايته بطولة أخلاقية ، ولا شجاعة إنسانية بالمعنى السامي. لكنها كانت تطابقًا مخيفًا بين القول والفعل. الرجل الذي دعا إلى عالم لا يرحم ، اختار أن لا يرحم نفسه ولا أسرته حين سقط ذلك العالم.

وهنا ، يتدخل التاريخ لا ليُبرّر ، بل ليُسجّل.

*

إن الأيام الأخيرة في حياة عبقري الإعلام ، الذي وُلد عام 1897 لا 1869 كما يخطئ البعض ، لا تُحرّك النفس لأنها ملهمة ، بل لأنها مرآة سوداء لقدرة الإنسان على الإيمان المطلق بفكرة ، حتى لو كانت تلك الفكرة عمياء ، قاسية ، ولا إنسانية.

هي قصة رجل لم يخن كلمته ، لكنه خان الإنسانية . رجل صدق مع نفسه ، لكنه كذب على العالم . رجل فهم قوة الإعلام ، قبل أن يفهم العالم خطره.

وهكذا، حين تبعوه إلى العالم الآخر ، لم يتبعوه إعجابًا ، بل فضولًا تاريخيًا:

كيف يمكن للكلمة أن تصنع أمة ، وكيف يمكن للأمة ، حين تسلّم عقلها للكلمة ، أن تسير طوعًا نحو الهاوية.

تلك ليست أسطورة بطل ،بل مأساة عقلٍ آمن ، حين كان الإيمان هو الخطر الأكبر.

ليلة التاسع عشر:
حين تكلّم التاريخ همسًا في دهاليز الروح

كان يوم التاسع عشر من إبريل عام 1945 يتثاءب بثقلٍ كئيب ، كأن الزمن نفسه قد أُنهك من كثرة ما شهد من الدم والحديد . الموقف الحربي الألماني بلغ من السوء مبلغًا لم يعد يحتاج إلى تقارير ولا إلى خرائط ؛ كانت الحقيقة واقفة عند كل زاوية ، صارخة في وجه كل ألماني : الهزيمة تقترب ، والرايخ الذي قيل له أن يدوم ألف عام يتداعى في أقل من عقد.

وكان الأشد مرارة في هذا الانكسار ، ليس فقط السقوط العسكري ، بل الشعور الدفين بأن ألمانيا - في نظر قادتها - ستُجبر للمرة الثانية على الخضوع لشعوب طالما وُضعت في أسفل سلّم الحضارة المصنوع من أوهام العظمة.

في الساعة العاشرة مساءً ، حين كانت برلين تُقصف كقلبٍ محاصر ، وحين كان الليل يُطرّز سماء الرايخ بوميض الانفجارات ، التقط جوزيف جوبلز سماعة الهاتف. صوته ، رغم ما فيه من تماسك ظاهري ، كان مشوبًا بخشخشة داخلية ، كأن الكلمات تخرج من صدرٍ يتهدّم.

ماجدا، يجب أن تأتي إلى برلين الآن . في الحال.

ساد صمت قصير ، صمت امرأة اعتادت أن تقرأ ما بين الكلمات.

بول ، لا أجد ما يستدعي هذا الاندفاع ،

الأحوال بالغة السوء ، أجل، لكن لا تدعي القلق يتسلل إليك . كل شيء يسير وفق ما رسمه الفوهرر. اطمئني. تعالي بالأطفال ، وأمي أيضًا.

ترددت ماجدا ، لا خوفًا ، بل إدراكًا . كانت تعرف أن الكلمات حين تُقال بهذا الإلحاح لا تُقال إلا في اللحظات الأخيرة.

الأطفال في فراشهم منذ ساعة يا بول ، أيلزم أن يأتوا هم أيضًا؟

الجميع يا ماجدا - الليلة ؟

الآن.

أغلقت الهاتف بيدٍ ثابتة ، كأن القرار لم يُفاجئها. كانت ماجدا امرأة صقلتها الأيديولوجيا حتى صارت جزءًا من بنيتها النفسية ، لا رأيًا تعتنقه بل قدرًا تسكنه . أيقظت أطفالها الستة ، واحدًا تلو الآخر ، وألبستهم ثياب الخروج ، لا بعجلة هستيرية ، بل بدقة من يعرف أن الطقوس الأخيرة يجب أن تُؤدّى بإتقان.

أعدّت حقيبة أخرى ، وضعت فيها ثيابًا تكفي لإقامة قد تطول ، أو قد لا تبدأ أصلًا. ثم اتجهت إلى غرفة حماتها ، الأم العجوز ، أيقظتها في رفق ، ففتحت المرأة عينيها على بصيرةٍ لا نوم فيها.

لا تتركيني مع الخدم في هذه الضيعة الكئيبة يا ماجدا . أريد أن أكون مع ولدي في برلين.

ابتسمت ماجدا ابتسامة شاحبة ، وقالت بصوت خفيض:

هذا ما طلبه بالحرف ، يا أماه : وأمي أيضًا.

ثم أضافت ، وفي نبرة لم تستطع إخفاء ارتجافها:

ليتك تبقين هنا، أعتقد أن الأمور قد تحرّجت جدًا.

لكن الأم ، وقد عاشت ما يكفي لترى سقوط إمبراطوريات ، نهضت بهدوء ، وارتدت ثياب الخروج دون سؤال . كانت تعرف أن الرحلة ليست جغرافية ، بل وجودية.

أيقظوا السكرتيرة إيفا ، التي كانت غارقة في نومٍ مثقل بالكوابيس. نهضت فزعة ، وعيناها تسبحان في رعبٍ مألوف:

ماذا حدث يا سيدتي ؟ ما زلت أرى ذلك في أحلامي منذ ليال ، يا إلهي، ماذا نفعل؟

وضعت ماجدا يدها على كتفها ، وقالت بنبرة تُخفي أكثر مما تُظهر:

اهدئي يا إيفا . لا شيء يدعو إلى القلق. الروس لن يصلوا إلى هنا أبدًا.

وإذا ما حدث ؟

سنعود إلى برلين جميعًا.

تنهّدت إيفا ، وقالت وهي تنظر من النافذة حيث كان الليل يشتعل:

يا إلهي، الغارات على برلين لا تنتهي، ليل نهار.

هذا ما يريده زوجي. هيا ، أعدّي ما نحتاجه ، وأيقظي السائق.

عاد الهدوء المصطنع ليخيّم على الجميع ، هدوء اللحظات التي تسبق العاصفة أو القبر. حتى الطفلة الصغيرة هيلجا ، ذات الاثني عشر عامًا ، كانت أكثرهم صمتًا. احتضنت جدتها ، وقالت بوجومٍ يليق بكبار الفلاسفة لا بالأطفال:

إذن، فقد انتهت أيامنا في الحياة، يا جدتي.

ربتت الجدة على شعرها الأبيض المختلط بشعر الطفلة الأشقر ، وقالت بحنانٍ يناقض الحقيقة:

لا يا صغيرتي، الحياة أمامك وأمام إخوتك طويلة عريضة.

رفعت هيلجا رأسها ، وفي عينيها يقين لا يعرف البراءة:

ليس تحت حكم العدو ، يا جدتي. لقد وعدت أبي - أنا وأخواتي الثلاث - أن نموت معًا إذا خسرنا الحرب . وأعتقد أننا خسرناها.

ارتجفت الجدة ، لا من الكلام ، بل من منطقه. حاولت أن تتشبث بما تبقى من عقيدة الدولة:

الفوهرر يقول عكس هذا تمامًا. ألا تثقين بما يقوله الفوهرر؟

أجابت هيلجا دون تردد:

كل الثقة، بالفوهرر ، وبأبي. ولذلك أنا مستعدة للموت إذا قرر أبي ذلك.

في تلك اللحظة ، لم تكن الطفلة تتحدث كطفلة ، بل كنتاجٍ كامل لمنظومة نفسية صاغت الموت على أنه طاعة ، والفناء على أنه شرف. كانت تشعرُ بالنهاية ، لا خوفًا ولا حزنًا ، بل استسلامًا فكريًا مُطلقًا.

ماجدا ، التي كانت تسمع الحوار من بعيد ، أدركت الحقيقة كاملة: هذه ليست رحلة إلى برلين ، بل إلى خاتمة مكتوبة منذ سنوات. كانت تعرف - بل تؤمن - أنها وبناتها ، وقد حُرمن من الذكور، سيكنّ القرابين الأخيرة على مذبح فكرةٍ اسمها الرايخ. ولم يكن في داخلها صوت اعتراض ، لأن الاعتراض كان قد مات يوم آمنت أن الفرد لا قيمة له خارج الدولة ، وأن الأمومة نفسها تُقاس بمدى الولاء.

في تلك الليلة ، لم تكن برلين مجرد مدينة محاصرة ، بل عقلًا جماعيًا ينهار ، ونفسًا ألمانية تواجه صورتها الحقيقية في مرآة التاريخ.

وكانت عائلة جوبلز ، في طريقها الهادئ وسط لهيب الحرب ، تمشي لا إلى المخبأ ، بل إلى الأسطورة الأخيرة ، أسطورة النهاية التي ظنّوها خلاصًا، فكانت لعنة.

حين تُحصي الأرواح قبل الأمتعة

قبل أسبوعٍ واحدٍ فقط من تلك المكالمة الهاتفية التي بدت في ظاهرها عابرة ، وفي باطنها فاصلةً بينَ زمنين ، كانت تقوم بالجرد. لا جردَ الأرقام وحدها ، بل جردَ ما تبقّى من الطمأنينة في دارٍ ريفيةٍ هادئة عند أطراف **شوانن فردر** ؛ ذلك المكان الذي كان يومًا ملاذًا للسكينة ، فإذا به اليوم يقف على تخوم العاصفة.

كانت تعدّ الأطباق ، لا لأنها تخشى نقصها ، بل كأنها تريد أن تتأكد أن النظام ما زال قائمًا في عالمٍ يتداعى. تحصي أدوات المائدة ، لا لأن الجوع قريب ، بل لأن الفوضى باتت تطرق الأبواب . تلمس أغطية الفراش ، فتعدّها واحدًا واحدًا ، وكأنها تعدّ الليالي الباقية قبل أن يُطفأ المصباح الأخير.

في قلبها ، كان الحزن مقيمًا لا عابرًا ، والقلق جاثمًا لا زائرًا. ومع ذلك، لم يظهر شيء من ذلك على وجهها الجميل ، ذاك الوجه الذي تمرّن طويلًا على ارتداء الأقنعة. كان جمالها هادئًا ، صلبًا، جمال امرأةٍ تعلّمت أن تخفي ارتجاف الروح خلف ثبات النظرة. وحتى صوتها ، حين كانت تُلقي التعليمات ، حاولت قدر طاقتها أن تجعله مرحًا ، فكهًا ، كأن الحرب مجرّد إشاعة ، وكأن المدافع لا تعوي في الأفق.

قالت لها **إيفا**، وهي تدوّن في دفترٍ صغير :

لا أدري يا سيدتي، لماذا تقومين بهذا الجرد في مثل هذا الوقت من العام ؟ كأنك تريدين أن تُبعدي ذهنك عن الأنباء العسكرية المضطربة.

رفعت رأسها فجأة، وفي عينيها بريق تحذير لا يخلو من حنان:

إياكِ أن تسمع منكِ البنات كلامًا كهذا يا أيف ، هيه! هل كتبتِ ما أمليتُ عليكِ؟

كل شيء ، الأطباق وأدوات المائدة وأغطية الفراش ، من يراكِ يا سيدتي تفعلين هذا ، لا يتصوّر أبدًا أن الروس على الأبواب.

ابتسمت ابتسامةً خفيفة ، أقرب إلى السخرية الفلسفية منها إلى المرح ، وقالت بسجعٍ هادئ:

حتى إذا كانوا على الأبواب يا إيفا، فلن يدخلوا.

تردّدت إيفا ، ثم تجرأت:

سيدتي ، أليس من الأفضل أن تأخذي السيدة العجوز والأطفال إلى مكانٍ أكثر أمانًـا ؟ لو كنتُ مكانكِ ، لحاولتُ الوصول إلى خطوط الإنجليز أو الأمريكيين.

هنا توقّف القلم ، وساد صمتٌ ثقيل ، صمتٌ يحمل من المعاني أكثر مما تحتمله الكلمات. التفتت إليها ، وقالت بنبرةٍ حاسمةٍ لا تقبل جدلًا:

من حسن الحظ أنكِ لستِ مكاني. أينما يكون زوجي يا أيف ، سأكون أنا وأطفالي.

لم تكن تلك جملةً عابرة ، بل كانت إعلان عقيدة. كانت صادقة حتى العظم. بجملةٍ بسيطة ، قصيرة ، عبّرت عن رابطةٍ لا انفصام لها بين الزوج والزوجة ؛ رابطةٍ ترى في

المصير وحدة ، وفي النهاية اشتراكًا. كانت ثقة **ماجدا** في زوجها العبقري ، **الدكتور بول جوزيف جوبلز** ، ثقةً لا تعرف الشك ، ولا تسمح له أن يتسلّل.

هو لم يكن زوجًا فحسب ، بل فكرة ، ومشروعًا ، وقدرًا. كانت تؤمن بعقله كما يؤمن المؤمن بنصٍ مقدّس ، وتراه أكبر من الهزيمة ، أذكى من السقوط.

*

بعد ساعةٍ من تلك المكالمة الهاتفية ، كانت السيارة تشقّ الطريق السريع نحو العاصمة ، تنهب الأرض نهبًا ، كأنها تفرّ من ظلّها. مع كل ميل ، كان دويّ القنابل يقترب ، وهدير الطائرات يعلو ، وزئير مدافع الجبهة الشرقية يملأ السماء والأرض. الحرب هنا لم تعد خبرًا في نشرة ، بل واقعًا يُسمع ويُشمّ ويُحسّ.

ومع ذلك ، ذهب من في السيارة - كلٌّ بطريقته - إلى ذكرياته. كأن الذاكرة ملجأٌ أخير حين يعجز الجسد عن الهرب . تداخلت الذكريات السعيدة بالتعيسة ، الفرح بالحسرة ، النصر بالخذلان ، لكنها جميعًا كانت **ذكريات العمر** ؛ والعمر ، حين يُستعرض دفعةً واحدة ، يبدو أقصر مما نظن.

غاصت ماجدا في ذاكرتها ، فعادت إلى زمنٍ أبعد ، إلى ألم العجوز يوم اندلعت الحرب العالمية الأولى. كان بول جوبلز آنذاك في الثامنة عشرة من عمره ، شابًا نحيل الجسد ، متّقد الذهن. ذهب إلى مراكز التطوع في الجيش ، عاد بعدها يبكي ، لا دموع ضعف ، بل دموع قهر.

لقد رفضوني يا أمّاه،

قالها وهو يضرب بيده على الطاولة ، كأنها ذنب التاريخ لا ذنبه. نظرت إليه أمّه ، تلك المرأة التي عرفت مبكرًا أن هذا الابن لن يكون عاديًا ، وقالت بحزنٍ حكيم:

كان يجب أن تتوقّع هذا يا بول. قدمك منذ ولادتك ليست على ما يرام ، وهذا العرج الخفيف في ساقك اليمنى،

قاطعها، وصوته يشتعل :

أليس في الجيش من عملٍ سوى حمل البندقية والسيف وركوب الجياد؟! إنني ماهر في أشياء كثيرة يحتاج إليها التنظيم العسكري. لقد قلت لهم هذا يا أمّاه ! صرختُ في وجوههم: أيها الأغبياء! اجعلوني على أجهزة مورس التلغرافية ، ليس هناك من هو أمهر مني في ذلك!

توقّف قليلًا ، ثم تابع ، والغضب يتحوّل إلى مرارة:

رفضوا. لم أترك مكاني. تشبّثت بباب غرفة التطوّع حتى أمر الضابط بحملي حملًا ، وإلقائي في ساحة المركز.

سكتت الأم لحظة ، ثم قالت بجناسٍ يوازن بين الألم والأمل:

ـــيا ولدي، إذا كنتَ لم تتهيّأ للصراع البدني ، فقد هيّأتك السماء دون شك للصراع العقلي. لماذا لا تكتفي بهذا ؟ من يدري، لعلّ ألمانيا في حاجةٍ إلى قدراتك العقلية أكثر من حاجتها إلى قدراتك البدنية.

تلك الكلمات لم تكن عزاءً فحسب ، بل نبوءة. نبوءة ستتحقق على نحوٍ لم يتخيّله أحد.

*

عاد صوت القنابل ليوقظ ماجدا من شرودها. نظرت من نافذة السيارة ، فرأت التاريخ وهو يُعاد كتابته بالنار. تساءلت في داخلها - حوارًا داخليًا لا يسمعه أحد -: هل كنّا صانعي هذا المصير ، أم صنيعة ظروفه ؟ هل كان بول يكتب التاريخ ، أم كان التاريخ يستخدم قلمه ؟

ثم أجابت نفسها ، كأنها تدافع عن إيمانها الأخير:

الأفكار العظيمة لا تُهزم ، قد تُحاصر ، قد تُشوَّه ، لكنها لا تموت.

في الخارج ، كان السائق صامتًا ، وفي المقعد الخلفي أطفالٌ لا يفهمون لماذا تغيّر العالم فجأة. أما هي ، فكانت بين زمنين: ماضٍ تؤمن به ، وحاضرٍ ينهار. ومع ذلك ، لم تشكّ لحظةً في خيارها. لقد اختارت منذ البداية أن تكون حيث يكون زوجها ، وأن تشارك المصير حتى آخر فصله.

وهكذا، بينما كانت السيارة تقترب من العاصمة المحاصرة، كانت ماجدا تُدرك - بوعيٍ فلسفيٍّ حاد - أن الجرد الحقيقي لم يكن جرد الأواني ولا الأغطية ، بل جرد القيم ، والولاءات ، والرهانات الكبرى.

ففي زمن السقوط ، لا يُسأل المرء: ماذا تملك ؟ بل يُسأل : **من أنت، ومع من تقف، وإلى أي نهايةٍ تمضي ؟**

اعترافات الروح الألمانية الجريحة

كانت الذاكرة ، كلما داهمتها الليالي الثقيلة ، تفتح باب تلك الغرفة الموصد ة، فتندلق منها أصوات البكاء كأنها نواح قرونٍ متراكمة. تذكّرتُ - أو لعلها تذكّرت - ألم أحزان تلك الليلة ، حين أغلق الفتى على نفسه باب غرفته ، كأنما أراد أن يعزل العالم عن قلبه ، أو أن يعزل قلبه عن عالمٍ خانه. ظلّ يبكي حتى انشقّ الفجر ، بكاءً لا يشبه بكاء الصغار ، بل بكاء العارفين حين تُسحق أوهامهم تحت أقدام التاريخ.

وفي الغرفة الأخرى ، كانت هي أيضًا تبكي. لا صوت ، لا عويل ، بل دموع تنساب في صمتٍ أثقل من الصراخ . كانت تبكي من أجله ، ومن أجل نفسها ، ومن أجل وطنٍ بدا كشيخٍ مكسور الظهر . كان أذكى أبنائها ، وأقربهم إلى روح الأسرة ، وأشدّهم حدبًا على إخوتِه ، كأن قلبه خُلِق أكبر من جسده . وكان شديد الإيمان بتفوّق الإنسان الألماني ، إيمانًا لا تشوبه شبهة ، ولا يعتريه شك. لم يخطر بباله - لا في حلمٍ ولا في كابوس - أن تنهزم ألمانيا ، أن تنكسر تلك الأمة التي رآها قدرًا لا يُقهر.

لهذا جاءت الهزيمة صاعقةً لا تُحتمل. صدمةً تكسّر العقل قبل القلب ، وزاد من قسوتها أن القادة والساسة الذين كان يتطلع إليهم كأبطالٍ من ملحمةٍ قومية ، عوملوا من المنتصرين كمجرمي حرب ، تُسحب منهم الأوسمة كما تُسحب الأقنعة عن الوجوه.

مرّ في ذهنها خاطرٌ عابر ، كالبرق حين يشقّ سماءً ملبّدة:

أيمكن أن يُعامل الحلفاء ولدها ، وزعيمه ، وبقية قادة الحزب كمجرمي حرب هذه المرة أيضًا ؟

ارتعشت الفكرة في رأسها ، ثم سقطت في قلبها سقوط حجرٍ في بئرٍ بلا قرار. رغما عنها ، بلّلت دمعةٌ عصيّة خدّها المتغضّن. رأت الصغيرة هيلجا الدمعة ، فمالت على خدّ جدتها ، ولثمت تلك القطرة الدافئة في حنانٍ صامت ، كأنها تمسح عن الزمن بعض قسوته.

لم تكن الأم ، بادئ ذي بدء ، تريد لولدها أن يعمل بالسياسة. كانت السياسة ، في نظرها ، وحشًا يأكل أبناءه. أرادته أن يدرس هندسة النسيج ، أن يدير مصنع والده الذي مات فجأة ، وتركها نهبًا لجشع الأقوياء ، أولئك الذين حاولوا فرض وصايتهم على الأسرة اليتيمة باسم الخبرة وباطنهم الطمع. لكنها لم تستطع أن تمنع روحه من الميل حيث تشاء. مال إلى الأدب ، ثم إلى الفلسفة ، ثم إلى التاريخ ، كأنما كان يبحث عن معنى يتجاوز القماش والآلات ، معنى يداوي جرح الأمة قبل أن يرمّم جدران المصنع.

في تلك الفترة المثيرة ، عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، كتب - والمرارة تسيل من قلمه - كلماتٍ تشبه النبوءة وتوشك أن تكون لعنة:

الفكرة العامة الآن عند أعداء بلادي هي أن يستذلّونا لألف عام قادمة على الأقل ، ولكنهم أغبياء ، لا يعرفون المعدن الأصيل الذي صُنع منه الإنسان الألماني. سنعود لنضرب الفرنسيين ضربات موجعة أخرى ، كالتي وجّهناها إليهم طوال أربع سنوات من

الحرب المضنية ، وكالتي اعتدنا على توجيهها إليهم مع طول صراعنا معهم. وهذه المرة سنكسب الحرب دون أدنى شك.

لم يتزعزع هذا اليقين لحظة واحدة. لا حين رأى الشبان المسرّحين من الجندية يتدفقون إلى الشوارع بلا عمل ، ولا حين رأى بعضهم وقد فقد أطرافًا أو أجزاءً من وجوههم ، يحملون بقايا أجسادهم كوثائق حيّة على عبث الحرب. لم يهتز إيمانه حتى وهو يرى البلاد ممزقة بخلافات الأحزاب ، والشيع الجديدة ، والرايات المتناحرة التي لا يجمعها سوى الغضب.

وكان يكتب مرة أخرى ، كأنما يحاور نفسه في مرآة التاريخ:

الشك يملأ قلوب الشباب إزاء الزعماء والساسة ، ولكن النور سينبثق ذات يوم من بين أصابع ألماني عبقري. لن يكون هو الإمبراطور الذي يطالب الشبان بعودته ليقود البلاد في حرب جديدة ، ولن يكون من الجامعة التي أفسدت الشباب بالنظريات المستوردة عن رأس المال ، تلك النظريات التي أدت إلى انهيار العملة الألمانية. العبقري المنتظر سيأتي بأفكار جديدة ، نابعة من مصادر ألمانية صرفة.

في تلك الأيام، لم يكن قد عرف هتلر ، ولم يره ، بل لم يسمع به أصلًا. كان هتلر آنذاك أمنية وطنية ، فكرة معلّقة في ضمير الغيب الألماني ، اسمًا بلا وجه ، وصوتًا بلا جسد. وكأن الأمة كلها كانت تنتظر تجسّد تلك الفكرة في رجل.

يقول غوبلز ، وهو يستعيد اللحظة التي غيّرت مجرى حياته:

لم أعرف هتلر إلا عام 1922، في ميونيخ. كانت ميونيخ في ذلك الوقت مركزًا للحركات الوطنية ، ولمنظمات الشباب العسكرية. دخلت القاعة ، فوجدتها تغلي كمرجل. رأيت رجلًا قد وقف على مائدة يخطب. لم أره جيدًا ؛ كنت في الصف الأخير ، وأمامي أجساد متراصّة مشرئبة الأعناق ، لكن فكره أخذني على الفور إلى عالمه.

كان الحوار داخليًا قبل أن يكون خارجيًا :

من هذا الذي يتحدث كأن الكلمات خُلقت لتوّه ؟ كيف تخرج الجملة من فمه فتستقيم كالسيف ؟

لم يدرِ يومها أكان الخطيب أشقر أم أسمر ، مرسل اللحية أم حليقها. بهرته الحماسة ، وسحرته البلاغة ، وأسره ذلك المزج الغريب بين الغضب والأمل.

مال على أقرب الرجال إليه ، وسأله همسًا:

من هذا ؟

أجابه الرجل في دهشة صادقة:

عجبًا! ألا تعرف أدولف هتلر ؟ سكرتير الحزب !

أي حزب ؟

الحزب القومي الاشتراكي.

كان الخطيب قد أنهى خطبته ، وغادر القاعة إلى غرفة جانبية. لم يذهب إليه. ربما خشي أن تفسد الكلمة إذا اقترب منها كثيرًا. لكنه رأى عند مخرج القاعة منضدةً جلس إليها

رجل ، وأمامه أوراق التطوّع في الحزب. تقدّم بخطواتٍ محسوبة ، كأن التاريخ نفسه يراقبه. كتب اسمه، وناول الورقة.

رفع الرجل رأسه ، وقرأ الاسم بصوتٍ جاف :

بول جوزيف غوبلز ؟

أجل ، يا سيدي.

كتب رقمًا على الورقة ، وقال بصرامةٍ لا تخلو من نبرة قدر:

رقمك في الحزب هو 8762.

شكرًا.

لم يكن يدري ، وهو يطوي تلك اللحظة في جيب الزمن ، أن هذا الرقم سيقفز قفزًا مذهلًا ، ليغدو في زمنٍ قياسي الرقم اثنين في الحزب النازي. لم يكن يعلم أن الفكرة التي كانت تبحث عن جسد ، قد وجدت أخيرًا صوتها ، وأن صوته هو نفسه سيغدو صدىً لها ، يدوّي في القاعات والساحات ، وفي ضمير أمةٍ جريحة تبحث عن خلاصها ، ولو في أحلك الطرق.

حصن الظلال الأخيرة:
مونولوج تحت أنقاض الرايخ

حين انزلقت السيارة السوداء عبر شوارع برلين المتهالكة ، كانت المدينة تبدو كشيخٍ أنهكه السعال ، يتكئ على جدرانٍ مكسورة ، ويحدّق في سماءٍ لا تجيب. توقفت المركبة أمام الدار التي اتخذها جوبلز ، وزير دعاية الرايخ ، مقرًّا للعمل ومسكنًا معًا ؛ دارٌ ذات أبوابٍ سميكة ، ونوافذَ كعيونٍ مغمضة ، تخفي أكثر مما تُظهر. نزلوا واحدًا تلو الآخر ، كأنهم حروفُ كلمةٍ واحدةٍ تُساق إلى نهايتها. دخل الجميع ، ثم أُغلق الباب. كان صوت الإغلاق كخاتمةِ فصلٍ لا رجعة فيه.

صاروا في حصنٍ معزولٍ عن العالم ، لا صلة له بالخارج إلا عبر مئات الأجهزة اللاسلكية والحاسبات فائقة الدقة ، آلاتٌ تُحسن الحساب وتُسيء الرحمة ، احتفظ العلماء بسرّها حتى سقوط الرايخ. هنا ، لا بريدَ ولا نافذةَ ولا نَفَسَ إلا ما يسمح به السقف. حصنٌ أم سجن ؟ الفرق بينهما حرفٌ واحد ، لكن المصير واحد.

لم يرق هذا السجن الإجباري لبعض معاوني جوبلز ، رغم إخلاصهم الذي كان يلبس ثوبَ العقيدة. قال أحدهم ، وقد اشتعل صوته غضبًا مكتومًا:

ليس من حقه أن يمنعنا من إحضار نسائنا وأطفالنا. في هذه الدار أكثر من مائةٍ وعشرين غرفة ، أفلا يسع هذا كله أسرَ ستةَ عشر رجلاً ؟

ارتفعت ضحكةٌ قصيرة ، كحدّ السكين ، من رجلٍ نحيل العينين ، اسمه بالرز ، وقال بحدّةٍ جافة :

هل جننت يا بالرز ؟ لا أحد يجهل أننا سنموت تحت أنقاض هذا البيت. على أي تجسّرٍ تجرؤ ، لتُحكم بالإعدام على زوجتك وأولادك ؟

تقدّم الاعتراض خطوة ، تراجع العقل خطوتين.

تعني ماذا ؟

إن كنت تعرف دكتور جوبلز كما أعرفه ، فالمؤكّد أنه ينوي أن يقتل نفسه إذا تيقّن من خسارتنا هذه الحرب. وأنا على ثقة أن هذا القرار سيشمل زوجته وأطفاله.

سكتوا. سكونٌ ثقيلٌ كالرصاص.

يا إلهي، هذا قرارٌ خطير حقًّا ، وما ذنب أمه العجوز ؟

قال آخر ، بنبرةٍ تُخفي ارتعاشًا :

الرجل يريد أن يقضي على أهله ، حتى أمه.

كانت الكلمات تتكاثر كالفئران في الظلام ، تُقضم ما بقي من شجاعة. وفي قلب الدار ، كان جوبلز واقفًا أمام مرآةٍ طويلة. نظر إلى صورته ، فرآها مُجزّأة: نصفُ وجهٍ خطيبٌ ، ونصفُ قلبٍ جلّاد. دار في داخله حوارٌ أقدم من الحرب ، وأقسى من الهزيمة.

أأنا من قاد الكلمة ، أم قادتني ؟ أأنا من صنع الأسطورة ، أم صَنَعَتْني ؟

كان يعلم أن التاريخ لا يكتب بالحبر وحده ، بل بالدم والندم . وأن الدعاية ، حين تُفرط في تلميع السيف ، تصدأ يدُ حاملها.

دخلت أمه، امرأةٌ أنهكها العمر ، لكن عينيها ظلّتا نافذتين على حقيقةٍ لا تُكذَّب. كان قد اتخذ قراره ، ثم عاد عنه في آخر لحظة . قال، وهو يُخفي صوته في صدره:

يا أماه،

قاطعته بمرارةٍ هادئة ، كسكون ما قبل العاصفة:

لا ، لن أفارقك يا يول. إذا كنت لا تحتمل أن ترى ألمانيا تحت أقدام الغزاة مرةً أخرى ، وقررت الانتحار ، فأنا أيضًا لن أحتمل. ثم ماذا سأفقد ؟ عامًا آخر أو عامين على أكثر تقدير. لن أغادر برلين. ولكن بحق السماء ، لا تُبقِ البنات معك هنا.

ارتعش فكه. لم يكن هذا رجاءً ، بل حكمًا أخلاقيًا صادرًا من أمٍّ تعرف أن الأمومة ، حين تُحاصرها الأيديولوجيا ، تصير وصيّةً أخيرة.

لقد أردن ذلك ، صدقيني يا أماه. إذا قُدِّر لنا أن نخسر الحرب ، فلن يرحم الحلفاء أحدًا من ذريتنا. سيرسلونهم إلى معسكرات الاعتقال ، وسيقتلونهم ذلًّا وعارًا ومهانة ، كل دقيقةٍ تمضي. الفرنسيون يزعمون أننا وحوشٌ مفترسة ، نطلق النار دون ضمير على العُزّل ، ونُجري تجارب غير أخلاقية ولا إنسانية على الأسرى. أنتِ تعرفين كذب هذا الادعاء. فهل تعرفين لماذا يكذبون ؟

لماذا ؟

قالتها، لا لتعرف ، بل لتختبر صدقه الأخير.

ليجدوا المبرّر لما سيفعلونه بالألمان ، وبأبناء قادة ألمانيا قبل الجميع.

ساد صمتٌ كثيف. الأم تنظر إلى ابنها كما لو كانت تنظر إلى تاريخٍ كاملٍ وقد انكسر. رأت فيه الطفل الذي تعلّم الحروف ، والرجل الذي حرّك الجموع ، والإنسان الذي ضلّ طريقه بين الشعارات.

في الخارج ، كان المعاونون يتبادلون همسًا متقطّعًا ، حوارًا خارجيًا يوازي العاصفة الداخلية.

نحن أسرى قرار رجلٍ واحد.

بل أسرى فكرةٍ صدّقناها أكثر مما صدّقتنا .

التاريخ لا يرحم .

ولا يغفر لمن يختبئ خلف الكلمات.

وفي عقل جوبلز ، تكدّست الصور: خطبٌ تهدر ، جماهير تهتف ، ملصقات تُغري ، وأخبارٌ تُفصّل على مقاس النصر. رأى كيف ربط الأحداث بالتاريخ ، كيف جعل الماضي سُلّمًا ، والحاضر مسرحًا ، والمستقبل وعدًا زائفًا. الآن ، انقلب السلم حفرة ، والمسرح أنقاضًا ، والوعد سرابًا.

أكنتُ أؤمن بما قلت ؟ أم كنتُ أُتقن القول فحسب ؟

الفلسفة ، حين تُسجن ، تصير سكينًا ذا حدّين. واللغة ، حين تُستعبد ، تُصبح سلاسل من ذهبٍ خانق.

عاد إلى أمه ، صوته مكسورٌ كسطرٍ ناقص :

ظننتُ أنني أحميهم،

الحماية ، يا بني ، لا تكون بالموت ، قالت ،

ثم أضافت : التاريخ لا يحتاج إلى شهداء جدد ، بل إلى شجاعة الاعتراف.

في تلك الليلة ، لم تنم الدار. الأجهزة ترنّ ، اللاسلكي يئنّ ، والأنفاس تتقاطع. كان الحصن مرآةً مكبّرةً للذنب ، والسجن مختبرًا للأفكار حين تفشل. كل حوارٍ خارجي كان صدى لحوارٍ داخلي أعمق ، وكل قرارٍ مؤجَّل كان سكينًا معلّقة.

عند الفجر ، بدا الضوء شاحبًا ، كأنه يخجل مما سيرى. التاريخ كان يطرق الباب ، لا ليستأذن ، بل ليُحصي. وفي اللحظة التي تتقاطع فيها الإرادة مع الندم ، أدرك جوبلز أن الكلمات ، مهما بلغت ، لا تُنقذ روحًا إذا خانتها الحقيقة.

خرجت الأم إلى ممرٍّ طويل ، همست للجدران : ليغفر الله للغة حين تضلّ ، وللبشر حين يصدّقونها بلا قلب.

وبقي الحصن شاهدًا صامتًا ، يروي لمن يأتي بعد:

هنا ، سقطت الأسطورة تحت ثقلها ، وهنا ، تعلّم التاريخ أن أقسى الحروب تلك التي تُخاض داخل العقل.

أنبوب الظلّ الأخير
حوار في قبو التاريخ

في قبوٍ تتقاطع فيه الأنفاس كما تتقاطع الأسلاك ، وتتعانق فيه رائحة الرطوبة مع رائحة الخوف ، كان التاريخ جالسًا على ركبتيه ، يحدّق في وجوهٍ أنهكها الانتظار. هنا ، في الحصن الغائر تحت برلين ، لم تعد الجدران جدرانًا ، بل شواهد قبور مؤجَّلة ، ولم يعد الصمت صمتًا ، بل خطيبًا جهوريًا يعلن نهاية عصر.

قالت بصوتٍ خفيضٍ لكنه قاطع ، كحدّ السكين حين يمرّ على عنق القرار:

بول، لن تستطيع أن تفصلني عن البنات . إن شئتَ أن أغادر هذا الدار إلى أرضٍ محايدة ، فلا بدّ أن آخذ البنات معي ، وإلّا فدعني أشارككم المصير النهائي .

لم تكن كلماتها توسّلًا ، بل كانت وصيّة أمٍّ تتحدّى التاريخ . كان بول واقفًا أمامها ، كتفاه مثقلتان بما لا يُرى ، وعيناه تتهرّبان من عينيها كما يتهرّب الجندي من مرآةٍ تعكس هزيمته. في داخله ، كانت حربٌ أخرى تدور ؛ حرب بين العقل الذي يُحصي المخارج ، والقلب الذي يُحصي الوجوه.

*

كيف أُقنع أمًّا أن تترك بناتها ؟ كيف أُقنع التاريخ أن يغيّر عادته في الافتراس ؟ إن تركتها هنا ، خنتُ الأمومة. وإن أخذتها ، خنتُ العهد . أيُّ خيانةٍ أهون ؟

لم يُجب. الصمت كان جوابه ، والصمت في تلك الأيام كان أبلغ من الخطب. خرج ، وأغلق الباب خلفه، وكأنّه يغلق فصلًا من كتابٍ لا يريد أن يقرأ نهايته.

*

دُسّ المخدّر في الطعام كما تُدسّ النوايا في الخطب. لم تشعر بشيء؛ كانت تبتسم ، تتحدّث عن البنات ، عن ضفائرهنّ ، عن ضحكاتهنّ التي تُشبه أجراس الكنائس قبل أن تُقصف. ثم خفَت الصوت ، ومال الرأس ، وسقطت الكلمات من فمها كأوراق خريفٍ بلا شجر.

أُمرت الأيدي فحملوها إلى قريةٍ قصيّة في غرب برلين ، قريبةٍ من الخطوط الأمريكية ، بعيدةٍ عن الضجيج ، قريبةٍ من النسيان. هناك، ستعيش مع أُسرٍ تحمل أسماءً ثقيلة: كاتيل ، جونتر، بورمان، أسماءٌ تُشبه الأختام ، تُطبع على مصائر لا تطلب توقيعها.

وعاد الهمس إلى الحصن ، همسٌ كحفيف الجرذان في الليالي الطويلة:

لقد ضنّ الدكتور جوبلز بأمّه، لقد سمعتُ حوارهما، كانت العجوز تُصرّ على البقاء معنا، لشدّ ما تحبّ بنات جوبلز، ولشدّ ما يحبّ هو أمّه.

كان الهمس يلد همسًا ، والظنّ يلد يقينًا زائفًا. في تلك اللحظات ، لم يعد أحد يميّز بين الحقيقة والإشاعة ، فكلتاهما كانتا تؤدّيان الوظيفة نفسها: قتل الوقت حتى يقتلهم الوقت.

*

ترى، هل يستشير هتلر في ما يقرّره بشأن أسرته ؟

سؤالٌ دار في العقول كما تدور الذبابة حول مصباحٍ يحتضر. هتلر ، الرجل الذي صار التاريخ ظلّه ، كان في المستشارية يدير دفة الأيام الأخيرة من الحرب ببراعةٍ تشبه الجنون. هاتفه لا يصمت ، وصوته لا يهدأ ، كأنّه يُفاوض القدر على تأجيلٍ قصير.

*

أهناك أمل ؟ أهناك، حقًّا ، خيطٌ رفيع يمكن أن نعلّقه على هذه الهاوية ؟ ولِمَ لا ؟ لقد أنقذها من مواقف أشدّ هولًا.

من التضخّم ، من الإذلال ، من الانكسار الأول .لكن التاريخ ، حين يبتسم ، لا يبتسم مرّتين.

قال أحدهم، وقد سئم التمثيل:

لا أعتقد أنّه سينجح هذه المرّة. أيّها السادة ، هذه أيّامنا الأخيرة ، لا يراودكم أيّ شكّ في هذا.

كان صوته كحجرٍ أُلقي في بركةٍ راكدة. تحرّكت الوجوه ، وتشنّجت الأيدي. ردّ عليه الكولونيل بالرز ، بنبرةٍ حاول أن يجعلها صارمة:

لا تحطّم عزيمة الرجال. العزيمة ؟

كلمةٌ كانت تُتداول كما تُتداول العملة القديمة ؛ قيمتها اسميّة ، لكنّها فقدت غطاءها من الواقع.

*

اقترب رجلٌ من الطاولة ، ووضع عليها أنبوبًا رفيعًا ، يكاد لا يُرى. قال ، وكأنّه يقدّم برهانًا فلسفيًا لا دواءً للموت:

انظروا إلى هذا الأنبوب الرفيع. أتدرون ما به؟ حامض بروسيا.

سكت قليلًا ، ثم أردف بسجعٍ بارد:

ثمن الأنبوب وما فيه لا يزيد على سبعة ماركات. يُباع سرًّا بالمئات في فندق الدون. ولمَ لا ؟ وهو أسهل وسيلةٍ للعبور إلى العالم الآخر ؛ أسهلها وأقلّها إحساسًا بالألم، بل لا ألم على الإطلاق. ضع نقطةً واحدة على لسانك ، فتسقط في الحال مصعوقًا.

كان الموت هنا مُقنّنًا ، مُسعّرًا ، مُعلّبًا في أنبوب . لم يعد فكرةً ميتافيزيقيّة ، بل سلعةً لها سعر ، ولها دليل استخدام.

*

قال جوبلز في نفسه : يا لسخرية القدر، أنا الذي ملأتُ العالم خطبًا عن الخلود ، أقف الآن أمام أنبوبٍ يُقنعني بالفناء. أهذه هي النهاية التي بشّرتُ بها ؟ أم هذه هي الحقيقة التي أخفيتُها ؟

نظر إلى الأنبوب ، ثم إلى الوجوه حوله. رأى الخوف متأنّقًا في بزّاتٍ عسكرية ، واليأس متزيّنًا بأوسمة . تذكّر أمّه ، تذكّر البنات ، تذكّر تلك الجملة التي قالتها :

وإلّا فدعني أشارككم المصير النهائي .

المصير النهائي،

كأنّ التاريخ لا يعرف إلّا النهايات المطلقة.

*

في الخارج، كانت برلين تحترق ببطءٍ مدروس. كلّ شارعٍ كان فصلًا محذوفًا من ملحمةٍ فاشلة. في الداخل ، كان القبو يختصر العالم ، ويكثّف الزمن. لم يعد الغد غدًا ، بل احتمالًا ضعيفًا ، ولم يعد الأمس ماضيًا ، بل شاهدَ اتهام.

تبادلوا النظرات ، وتبادلوا الصمت. لم يعد هناك ما يُقال. الكلمات، كما الجيوش ، استُنزفت. بقي الأنبوب ، وبقي القرار.

قال أحدهم، بنبرةٍ فلسفيّةٍ مكسورة:

ربّما، ربّما يكون هذا العبور هو الهزيمة الوحيدة التي نختارها.

ابتسم آخر ابتسامةً باهتة:

أو النصر الوحيد الذي لم نكذب فيه .

وهكذا، في قبوٍ كُتب له أن يكون شاهدًا لا ناجيًا ، امتزج التاريخ بالدراما ، والفلسفة بالسمّ ، والحوار بالصمت. لم تكن تلك نهاية حربٍ فحسب ، بل نهاية وهمٍ طويل ، وهمٍ ظنّ أنّه أكبر من الإنسان ، فإذا به يُختصر في أنبوبٍ رفيع ، لا يزيد ثمنه على سبعة ماركات، ولا يقلّ وزنه عن قرنٍ من الدم والدموع.

تحت قبة الرماد:

في ذلك الجوّ القاتم، المعبّق برائحة الانتحار ، لا رائحة البارود وحده ، بل رائحة الفكرة حين تحتضر ، عاش جوزيف جوبلز وأسرته ورجاله حتى الثاني والعشرين من إبريل . لم تكن برلين يومئذٍ مدينة ، بل جرحًا مفتوحًا ، وكانت الأنفاس تُسحب من الصدور كما تُسحب الأرواح من الأجساد ، بطيئةً ، موجعةً ، بلا رجعة.

في صباح ذلك اليوم الرمادي ، حين بدا الضوء خجولًا كأنه يستأذن الخراب ، بدأ رجال وزارة الدعاية في حديقة الدار يحرقون الملفات . أوراقٌ تتلوى في اللهب ، وسطورٌ تتصاعد دخانًا ، وأسرارٌ تتحول إلى رماد. لم يكن احتراق الورق مجرد فعل إداري يائس ، بل كان طقسًا جنائزيًا لتاريخٍ كامل . ضاعت في تلك النيران وثائق لا تُقدَّر بثمن ، مستندات كانت مفاتيح معاركَ خيضت بالكلمة لا بالمدفع ، وبالصورة لا بالسيف ، وبالإيحاء لا بالرصاص.

وقف جوبلز بعيدًا ، يراقب المشهد بعينين غائرتين ، كأنهما نافذتان تطلان على هاوية. لم يرَ أوراقًا تحترق ، بل رأى عمره يتفحّم ، وفكرته تتشقق ، وإيمانه القديم يتطاير شررًا.

هكذا إذن، قال في سره ، تنتهي الإمبراطوريات: بورقة ، فبكلمة ، ثم بصمت.

في العاشر من ذلك الشهر، كان قد بدأ تسجيل حديثه اليومي الذي اعتاد أن يذيعه على الشعب الألماني. صوته ، الذي طالما كان سيفًا مسلولًا في الفضاء ، بدا هذه المرة أثقل ، أعمق ، كأنه يخرج من قاع بئر. ومع ذلك ، لم يكن في نبرته ارتجاف . جوبلز لم يكن يكذب كما زعم خصومه ، ولم يكن يخفي الحقيقة عن شعبه كما ادّعوا ، بل كان- وهنا مكمن عبقريته - يصوغ الحقيقة صياغة الإيمان ، ويعيد ترتيب الوقائع بحيث تصبح الهزيمة اختبارًا ، والمأساة وعدًا ، والموت معبرًا.

كان عبقريًا في قدرته على نقل ما في قلبه من ثقة - أو ما يشبهها - إلى أكثر الناس تشاؤمًا. لم يكن يقول: «سننتصر، فقط ، بل كان يجعلهم يشعرون بأن النصر واجبٌ أخلاقي ، قدرٌ تاريخي ، لا خيار فيه.

ذلك اليوم بدا هادئًا على غير العادة. لا غارات ، لا مدافع ، لا صفارات إنذار. سكونٌ مريب، كهدوء ما قبل العاصفة ، أو كصمت القاتل قبل أن يرفع السكين.

التفت جوبلز إلى مساعده الأول ، الجنرال ريمان، وقال بنبرة حاول أن يجعلها عادية:

يوم غير عادي يا جنرال ريمان.

أجابه ريمان، وقد شبك يديه خلف ظهره:

أجل يا هر دكتور، أتعتقد أن الروس عدلوا عن الهجوم على برلين ؟

ابتسم جوبلز ابتسامة جانبية ، لا تخلو من سخرية مرة :

لا أعتقد. ماذا نفعل لو كنا مكانهم ؟ نواصل الهجوم بالطبع.

قد نتوقف ساعات لالتقاط الأنفاس، ثم نواصل الهجوم.

هز جوبلز رأسه موافقًا :

وهذا ما يفعله الروس الآن . لن تلبث ، عند الظهر أو العصر ، أن تسمع زئير الطائرات مرة أخرى.

وكان صادقًا . فما إن انحنى النهار قليلًا حتى عاد الزئير ، زئير الحديد وهو ينهش الحجر ، وعادت القنابل لتكتب توقيعها الدموي على جسد المدينة . اهتزت الجدران ، وتمايلت الثريات ، وانفجرت النوافذ كأحلامٍ لم تحتمل الحقيقة.

لجأ الجميع إلى الردهة الكبيرة المحصنة ، إلا جوبلز وريمان. بقيا في مكانهما ، كأنهما في غرفة جلوس هادئة ، يتحدثان عن الطقس لا عن القيامة . غير أن جسد جوبلز كان يخونه ؛ مع كل انفجار كان يتقلص ، لا خوفًا - أو هكذا أقنع نفسه - بل غضبًا ، غضب الفكرة حين تُهزم.

قال ريمان وهو ينظر إلى السقف المرتجف:

إنهم يتعمدون هدم كل شيء في ألمانيا، يا هر دكتور.

رد جوبلز بسرعة ، كمن كان ينتظر الجملة:

وهل أخفوا عزمهم على ذلك لحظة واحدة يا ريمان؟

إنه تشرشل الحقود، وراء هذا كله.

ضحك جوبلز ضحكة قصيرة ، جافة ، بلا مرح:

ذلك الرجل الصغير؟ أذلّ من أن يتخذ قرارًا كهذا. القرار اتُّخذ في الجبهة الشرقية يا عزيزي. لقد علمت أن الوريث قد طار إلى هناك لإجراء مباحثات مهمة.

رفع ريمان حاجبيه :

تعني إيدن ؟

أجل. سيرث تشرشل دون شك ، هكذا يريد له الجميع. لكنه سيكون كارثة على إنجلترا.

وسكت .سكت لأن الحوار الخارجي كان ستارًا واهيًا لحوار داخلي أشد ضجيجًا.

كارثة،ترددت الكلمة في ذهنه كصدى ساخر . ومن ليس كارثة الآن ؟ ألمانيا كارثة ، أوروبا كارثة ، والتاريخ نفسه يبدو كقاضٍ أعمى يضرب بمطرقته على جماجم المهزومين.

عاد بذاكرته إلى البدايات، إلى تلك الأيام التي كان فيها شابًا نحيلًا ، يكتب ، يحلم ، يؤمن بالكلمة أكثر من السيف .أنا ابن اللغة ، قال لنفسه ، صنعتُ واقعًا من الجمل ، وأقمتُ إمبراطورية من الخطب .

لكن اللغة ، حين تنفصل عن الحقيقة ، تتحول إلى مرآة مكسورة ، تعكس الوجوه مشوهة.

اهتز المكان بانفجار قريب.

شعر جوبلز بشيء بارد يمر في عموده الفقري. ليس خوفًا، لا ، بل إدراكًا متأخرًا. إدراك أن التاريخ لا يرحم العباقرة إذا أخطأوا الرهان.

التفت إلى ريمان مرة أخرى :

هل تعلم يا ريمان ؟ إنهم لن يفهمونا.

من ؟

المنتصرون. سيكتبون التاريخ كما يشاؤون. سيجعلون منا شياطين بلا عقول ، وكأننا لم نفكر ، لم نؤمن ، لم نحلم.

صمت ريمان ، ثم قال بصوت منخفض :

لكن يا هر دكتور، ماذا لو كانوا هم على حق؟

نظر إليه جوبلز نظرة حادة ، كأن السؤال صفعة:

الحق ؟ الحق مفهوم مرن ، يُشدّ ويُطوى حسب القوة. لو انتصرنا ، لكنا نحن الحق.

وسكت مرة أخرى .لكن داخله لم يسكت.

لو انتصرنا ، تلك الـ ، لو ، كانت كافية لتقويض كل يقينه. لأول مرة ، تسلل الشك من شقوق الجدار السميك الذي بناه حول عقله. شكٌّ فلسفي ، وجودي ، لا سياسي.

هل كنتُ صانع وهم ؟ أم كنتُ صانع معنى ؟ وهل الفرق بينهما إلا في النتيجة ؟

في الخارج، كانت برلين تحترق. وفي الداخل ، كان جوبلز يحترق معها ، لكن بنار أبطأ ، أعمق ، نارية الفكر حين يلتهم نفسه.

نظر إلى الرماد المتساقط من السقف ، وقال كمن يخاطب التاريخ نفسه:

لقد قاتلنا بالكلمة ، وهُزمنا بالواقع.

وللمرة الأولى ، لم يكن متأكدًا إن كان يأسف ، أم يعترف.

نشيد السقوط

كان الصمت في الردهة المحصَّنة أثقل من الرصاص ، وأكثف من الدخان الذي لم يصل بعد ، لكنه كان حاضرًا كالنبوءة . جدران سميكة ، أبواب فولاذية ، مصابيح شاحبة تُلقي ضوءًا مريضًا على وجوه ساكنة لا تعرف الارتعاش . ماجدا ، وبناتها الست ، جلسن في شبه دائرة ، كأنهن طقسٌ أخير لأسرةٍ تعرف أن الستار يوشك أن يُسدل.

لم يكن على واحدة منهن أثر خوفٍ أو ذعر ؛ لا ارتجاف كف ، ولا شهقة صدر. أهذا لأنهن بلغن تخوم النهاية ، فاستوى عندهن البقاء والفناء ؟ أم لأن النهاية حين تُرى قريبةً جدًا ، تفقد قدرتها على الإخافة ، وتصير فكرةً مجردة ، كمعادلة رياضية بلا عـاطـفـة ؟

همست هيلجا ، الكبرى، صوتها كخيط من هواء:

أمي، أريد أن أرى عمي هتلر قبل، قبل النهاية.

ارتعشت عين ماجدا ، لا صوتها . أجابت هامسة ، كمن يعتذر للقدر:

لا أحسب أن هذا مستطاع الآن يا عزيزتي.

أسندت رأسها إلى الجدار البارد ، كأنها تستعير منه صلابةً افتقدتها منذ زمن.

هناك ، عند تماس الحجر والذاكرة، انفتح باب قديم ، باب عام 1929 ، حين كانت ألمانيا تبحث عن خلاصها في الكلمات ، وتستبدل اليأس بالأمل ، والخراب بالشعارات.

*

1929 ، عام الانكسار العظيم ، عام انحدار العملة وصعود الخطابة. كان الحزب النازي يومئذٍ يكتسب أنصارًا من كل الطبقات ؛ من عمال المصانع إلى سيدات الصالونات المخملية. صار الإعجاب بقادة الحزب موضةً اجتماعية ، تُتداول كما تُتداول القبعات والفساتين. صور هتلر في كل مكان ، إلى جوار صورة بطل الشعب الألماني ، المارشال هندنبورغ ؛ صورتان تُجاوران بعضهما كما تُجاور النبوءة التاج.

لكن إعجاب ماجدا لم يتوزع. لم يكن له أن يتيه بين الوجوه. تركز كله في رجلٍ قصير القامة ، نحيل الجسد ، عريض الصوت ، حاد الذكاء : دكتور بول جوزيف غوبلز. كان منطقه ساحرًا ، كالسحر الذي لا يُرى أثره إلا بعد أن يستقر في الروح . المتحدث الرسمي باسم أدولف هتلر ، ولسان الحزب الذي لا يكلّ ولا يملّ.

لم تكن تفوّت من خطبه كلمةً واحدة . كانت تلاحقه كما تُلاحق الفراشةُ الضوء. ما إن تسمع بأنه سيسافر إلى مدينة ، حتى تُعدّ حقيبتها وتتبع الركب. وكانت ثريةً لا يعوزها شيء ؛ تنزل في أرقى فنادق المدينة التي يخطب فيها غوبلز ، تجلس في الصفوف الأولى ، أو تقف في الزوايا ، المهم أن تسمع ، أن ترى ، أن تُصدّق.

كان أول لقاء في مدينة كولونيا. يومها ، أجاد غوبلز الخطابة إجادةً بلغت حدّ الفتنة. أكثر من مئة ألف من أنصار الحزب احتشدوا في مركز الحزب ، والهتاف يرتفع كمدٍّ بحري ، لا يعرف التراجع. وقفت ماجدا مبهورة ، مأخوذة ، كأن الكلمات تُلقى لا على

الأسماع ، بل على القلوب مباشرة. لم تفق إلا حين انصرف الجميع ، وبقيت القاعة خاوية إلا من صدى الشعارات.

دخل غوبلز غرفته في المركز ، وبقيت هي واقفة ، كتمثالٍ نسيه النحات . اقترب منها أحد صغار موظفي المركز ، وقال يغازلها بوقاحةٍ لا تخفى:

ماذا يُبقيك يا جميلة ؟ لقد انتهى الاجتماع.

أجابته ساهمة ، كمن يعود من حلم:

آه، حقًا ؟ إنني آسفة.

ابتسم ابتسامةً لزجة، وقال:

يخيل إليّ يا جميلة أنك غريبة عن كولونيا. هل لك في كأسٍ مترعة في شقتي ؟

كانت الصفعة جوابًا أبلغ من ألف خطاب . قالت في شدة:

أيها الوقح ! أهذه أخلاق عضو في الحزب النازي ؟

تغير وجهه ، واشتعل غضبه

عجبًا! تصفعينني أيتها المرأة التافهة ؟ ألا تعرفين من أنا؟ أنا سكرتير الهر غوبلز!

رفعت رأسها ، وقالت ببرودٍ حاد :

حسنًا. يجب أن يعرف الهر غوبلز ما يفعل سكرتيره مع أنصار الحزب . سأدخل على الفور لأخبره.

توسل ، وتراجع ، وأمسك بذراعها :

أرجوكِ ، لا تخبري الهر دكتور ، لم أقصد شرًا.

نزعت ذراعها منه كمن ينزع سكينًا:

دع ذراعي أيها الوقح !

خرج غوبلز من غرفته على الضجة ، صائحًا :

ماذا هناك ؟ قالت ماجدا ، وصوتها يقطر غضبًا :

يا هر دكتور ، إنك لا تحسن اختيار معاونيك. سكرتيرك هذا أساء إليّ بالقول والحركة.

نظر غوبلز إلى الرجل ببرود جليدي :

سيدتي، هذا الرجل ليس سكرتيري . لا أعرفه على الإطلاق . من أنت أيها الرجل؟

موظف بمركز الحزب في المدينة يا هر دكتور.

حسنًا. ستنال عقابك إذا أثبت التحقيق صدق ما قالت السيدة.

صاحت ماجدا:

إنني لا أكذب أبدًا يا هر ! وإذا كانت هذه أساليب قادة الحزب ،

قاطعها في رقةٍ محسوبة :

سيدتي، كوني منصفة. لا مفر من التحقيق في موقف كهذا . تفضلي بالدخول إلى مكتبي.

ذلك المكتب كان بداية كل شيء ، أو نهايته المؤجلة. هناك، بين رفوف الكتب والخرائط، التقت العين بالعين ، وبدأ حوارٌ لم يكن سياسيًا فقط ، بل نفسيًا ، فلسفيًا ، وجوديًا.

قال غوبلز:

ما الذي جذبك إلى الحزب ؟ القوة ؟ النظام ؟ أم الحلم ؟

أجابت بعد صمت :

الكلمات. الكلمات حين تُقال بصدق تصنع وطنًا.

ابتسم، وقال :

وأنا أؤمن أن الكلمة سلاح ، من لا يحسن استعماله ، قُتل به.

كان الحوار يتشعب ، يتشابك ، كجذور شجرةٍ تبحث عن ماء. تحدثا عن ألمانيا ، عن الإهانة ، عن المستقبل ، عن الإنسان حين يبيع روحه لفكرةٍ يظنها خلاصًا. كانت ماجدا ترى في غوبلز عقلًا جبارًا ، وكان هو يرى فيها مرآةً تعكس طموحه الاجتماعي.

*

عادت الذاكرة إلى الردهة المحصَّنة. فتحت ماجدا عينيها. البنات ما زلن صامتات.

لزمن دار دورةً كاملة ، من شغف الكلمات إلى صمت الخراب . تساءلت في سرّها:

أكان التاريخ حتمًا ؟ أم كنّا نحن أدواته ؟ هل كنتُ امرأةً اختارت ، أم فكرةً اختارتني ؟

رفعت رأسها ، نظرت إلى بناتها ، وقالت بصوتٍ هادئ ، أقرب إلى صلاةٍ أخيرة :

التاريخ لا يرحم ، لكنه يتذكر. ونحن ، كنا سطرًا فيه.

وفي الخارج ، كانت برلين تحتضر ، وتاريخٌ كامل يطوي صفحته الأخيرة ، لا بمدادٍ من حبر ، بل بدمٍ ودخان .

سيرة حبٍّ تولد من الرماد

وهدأت ، هدأت ماجدا كما يهدأ بحرٌ هائج حين يُلقى في جوفه حجرٌ صغير. ناولها إحدى سجائره ، لا بدافع الكرم وحده ، بل ليكسر ارتعاشة أصابعها ، وليُسكت ذلك الارتجاف الخفي الذي كان يفضح ما لم تقله الشفاه . سحبت نفسًا طويلًا ، امتزج فيه دخان التبغ بأنفاسها المضطربة ، فاستحال الهواء اعترافًا معلّقًا بينهما.

كان جوزيف جوبلز يصغي ، لا بأذنه فقط ، بل بعينيه ، بعينيه اللتين كانتا تترصدان بريق عينيها الجميلتين ، كما يتصيد صيادٌ غزالًا شاردًا عند حافة الغابة . لم يكن ينصت إلى الكلمات وحدها ، بل إلى ما بين الكلمات ، إلى الصمت الذي يلي الجملة ، وإلى الرجفة التي تسبق الدموع. أدرك ، في تلك اللحظة العابرة ، أن هذه المرأة لم تمرّ به مرور العابرين ، وأنها - دون أن تدري - قد أحدثت في روحه شقًّا صغيرًا تسللت منه عاطفة لم يكن يظنها قابلة للحياة في قلبٍ صُلبٍ كقلبه.

أما ماجدا، فقد أدركت بدورها أنها أثّرت فيه . لم يكن ذلك الإدراك وليد غرورٍ أنثوي ، بل حدسًا داخليًا ، إحساسًا خفيًا يشبه يقين الصلاة . وحين عادت إلى برلين ، لم تتردد ، لم تتمنّع ، ولم تؤجل. قصدته في مكتبه بمقر الحزب ، حيث تختلط رائحة الورق بالحبر ، وحيث تتكدس الأحلام السياسية فوق الطاولات كخرائط حربٍ قادمة . هناك ، بين الملفات والخطب ، بدأت القصة ، لا بضمةٍ أو قبلة ، بل بمصارحات أسرية ، ثم مطارحات غرامية ، ثم انزلاق بطيء نحو حبٍّ لم يطلب الإذن من العقل.

كان جوبلز صادقًا مع قلبه ، وصادقًا مع كرامته . لم يكن من أولئك الذين يبيعون الوهم في سوق العاطفة . ذات يوم، أخلف موعدًا بينهما في مقهى هادئ من ضواحي برلين، مقهى اعتادا أن يلتقيا فيه بعيدًا عن العيون . انتظرته ماجدا طويلًا ، والساعة تلد ساعة ، والقلق يتناسل في صدرها . وفي اليوم التالي ، ذهبت إليه ، تلومه بعينين تشتعلان عتابًا.

قال لها، بصدقٍ عارٍ من الزينة:

ماجدا ، لقد نسينا أنفسنا . نسينا ما بيننا من فوارق . أنتِ ثرية ، من أسرة عريقة مرموقة ، وأنا رجلٌ لا يملك إلا طموحه . لن ينجح زواج يحمل بذور الفشل في رحمه.

ارتعشت شفتاها ، ثم قالت ، بصوتٍ كمن يقف على حافة الهاوية:

بول ، إذا كنت تحبني فلن نفشل ، لأني أحبك إلى درجةٍ سأقتل معها نفسي إن لم تحبني.

ساد الصمت . صمتٌ ثقيل ، كأن الجدران نفسها تحبس أنفاسها.

قال أخيرًا ، وقد غلبه قلبه :

أنتِ تعرفين أنني أحبك.

ابتسمت، ابتسامة المنتصر الموجوع ، وقالت:

حسنًا، لنتزوج في الحال.

هزّ رأسه ، وكأن عقله انتفض من غفوته :

ليس في الحال. من حق أسرتك أن تدرس الموضوع . لن أكون أنا، يا ماجدا ، من يهدم تقاليد الآرية العظيمة . لقد اعتاد الألمان أن يخضعوا ، دون معارضة ، لرأي رئيس الأسرة.

في الصباح ، عرضت الأمر على أبيها وأمها.

قالت الأم ، بابتسامةٍ مشوبة بعاطفةٍ قديمة :

لقد كنا نعرف كل شيء يا عزيزتي . وكان أبوك يتوقع أن يتقدم الهر جوبلز طالبًا يدك . إنه رجل مستقيم ، ومستقبله زاهر في خدمة بلادنا العزيزة.

أما الأب ، فقد قطّب حاجبيه وقال ، بصرامة رجلٍ خبر دهاليز السلطة :

ولكنه فقير يا ماجدا . هل أنتِ واثقة أنه لا يطمع في مالك ؟

أجابت، دون تردد :

أبتاه، إنه خير من يمثل التقاليد الألمانية العريقة . لم يفكر لحظة في ثروتي.

تنهد الأب ، ثم قال:

وهل أنتِ واثقة أنك تستطيعين العيش معه على مرتبه الضئيل ، بعد هذه السعة والرفاهة التي اعتدتِ عليها ؟ مرتبه في الشهر لا يكفي لشراء ثوبٍ واحد من أثوابك.

ابتسمت، بسخريةٍ بريئة :

وكيف عرفت قدر مرتبه يا أبت؟

هل نسيتِ أنني كنت مساعدًا لوزير الداخلية في وزارة المارشال هندنبرغ ؟ مرتبه من الحزب كرئيس منطقة برلين أربعمائة مارك ، وخمسمائة من الدولة كعضو في مجلس الأمة.

قالت، وهي تشدّ قبضتها :

الحب يعيش على كسرة الخبز يا أبت.

ضحك ضحكةً قصيرة ، وقال :

هراء عاطفي ! الفقر يقتل الحب.

سكتت.

فقال، بعد برهة :

لولا أنني أعرف أن دكتور جوبلز سيغدو من عظماء ألمانيا لما وافقت . دعيني أبارك زواجكما بقبلة ، ها قد ظهرت الدموع في عيني أمك. لقد وجد الهر جوبلز له حماةً هينةً لينة . دعيه يقابلني غدًا.

وتزوجا.

رغم انهماكه في العمل المتصل ، كانت ماجدا سعيدة . سعيدة وهي تحنو عليه حين يعود إليها مرهقًا بعد منتصف الليل ، تخلع عنه عباءة النهار الثقيلة ، وتضمد جراح

الإرهاق بصمتٍ دافئ. كان جوبلز هو المحرك الأول للإعلام الحزبي ، وكان كل من يعمل معه يعرف شعاره الحماسي الذي يردده كتعويذة:

يجب ألا نترك العمل دقيقة واحدة . لن تستعيد ألمانيا مجدها وكرامتها إلا بالعمل الدائم المستمر . يجب أن نعمل ونحن واقفون ، ونحن سائرون ، ونحن نقود السيارات أو نركب الطائرات .

كان هو من أعلن للشعب ، عبر الإذاعة ، بدء الثورة الألمانية التي خلقت الرايخ الثالث بقيادة هتلر . كان صوته يجلجل في الأثير:

إن الرايخ الجديد قد وُلد ، وإن جهاد أربع عشرة سنة قد تُوّج أخيرًا بالنصر. وسنصل إلى هدفنا دون ريب .

لكن التاريخ ، كما الحب ، لا يمنح وعودًا بلا ثمن.

عادت ماجدا من أرض الأحلام إلى دهاليز وزارة الإعلام في حي الوزارات ببرلين. الغارات تشتد ، والسماء تمطر نارًا ، وجزء من المبنى ينهار تحت القصف. رنّ الهاتف. من المستشارية كان هتلر يتصل بصديقه وزير إعلامه. أغلق جوبلز السماعة ، ونظر إلى زوجته بعينين متوترتين، وقال:

استعدي يا ماجدا لمغادرة المبنى. سنلحق جميعًا بالفوهرر في المخبأ الخرساني تحت حديقة المستشارية . أعدّي الصغيرات للرحلة القصيرة.

كانت سعادة الصغيرات لا تُقدّر. أخيرًا سيحظين بمداعبة الزعيم الرقيق الذي اعتاد أن يداعبهن بحنانٍ محروم من الأبوة ، ويغدق عليهن الهدايا واللعب ، والشكولاتة ، الشكولاتة على الخصوص.

أما ماجدا ، فكانت تمشي بين الركام ، تحمل أطفالها وتحمل معها تاريخًا كاملًا من الحب والطموح والخوف . في داخلها ، كان حوارٌ لا يهدأ:

هل كان الحب كافيًا ؟ هل انتصر القلب أم خسر ؟ هل كنّا صُنّاع قدرٍ أم أسرى زمن ؟

كانت تعرف ، في أعماقها ، أن بعض القصص لا تُكتب لتُختَم بسعادة ، بل لتُقرأ كتحذير ، وكمرآة . مرآة يرى فيها الإنسان كيف يمكن للعاطفة ، حين تتشابك مع السلطة والتاريخ ، أن تصنع فردوسًا مؤقتًا ، ثم تفتح أبواب الجحيم.

قبو المصير:
حين تتكلم الجدران وتنهار الأساطير

بعد دقائقَ بدت دهورًا، كان جوبلز قد استوى في مقعده داخل السيارة الأولى ، وإلى جواره زوجته ، وخلفهما أطفاله الستة ، عيونهم معلّقة بزجاجٍ يرتجف تحت هدير القنابل ، كأن برلين كلها تسعل دمًا.

قاد السيارة السائق المخلص راش ، ذلك الرجل الذي لم يعرف في حياته سوى الطاعة طريقًا ، والولاء عقيدة . وفي السيارة الثانية جلس شواجرمان ، مساعده الذي أنهكه السهر ، وإلى جانبه مربية الأطفال ، شاحبة الوجه ، تضغط يديها في حجرها كمن ينتظر حكمًا لا مفر منه.

وقبل أن تتحرك القافلة الصغيرة ، كأن نداءً خفيًا شدّ جوبلز من عنقه ، ففتح الباب على عجل ، وقفز من السيارة ، واندفع صاعدًا الدرج الحجري بخطوات متعثرة ، كأن الأرض لم تعد تعترف بوزنه ، حتى بلغ القاعة الكبرى ، حيث احتشد موظفو الإدارة، وجوههم شاحبة ، عيونهم متسمّرة على رجلٍ اعتادوا أن يروا فيه صوت الرايخ ولسانه.

وقف أمامهم لحظة صامتًا . الصمت في تلك اللحظة كان أثقل من الكلام ، وأفصح من الخطب . ثم قال، وصوته مكسور كزجاجٍ قديم:

معذرةً أيها الرجال ، لعلكم أدركتم أن هذه المنطقة من برلين لم تعد آمنة. لم يبقَ من مكانٍ يمكن منه إدارة دفة الحرب ، ولا توجيه القوات المدافعة عن العاصمة ، سوى قبو المستشارية ، حيث يعيش الفوهرر الآن مع أخلص أتباعه . إنني - وبتوجيهٍ من الفوهرر - أحرركم من كل ارتباطٍ عسكري.

ما إن انتهى حتى تعالت الأصوات ، لا كنقيق ضفادع في مستنقع ، بل كزئير رجال حُشروا في زاوية القدر:

سندافع يا هِر دكتور عن المبنى إلى آخر رمق من حياتنا !

ندرك يا هِر دكتور أنه لا يوجد في ألمانيا الآن مكان آمن ، حتى المستشارية ذاتها ، لن نفارق هذا المبنى إلا جثثًا هامدة !

كان جوبلز يصغي ، وكل كلمة منهم تنغرس في صدره كسهمٍ مسموم. قال متأثرًا ، وقد اختنق صوته بدموعٍ تأبى أن تسقط:

في أول الأمر ، وحتى ركبت السيارة ، لم يكن في نيتي أن أقول لكم ما قلت. لكنني تذكرت أنه ليس من حقي أن أقرر ما يجب أن يفعله كل واحدٍ منكم في مثل هذه الساعات القدرية . لكم الخيار ، إما اللحاق بأسركم قرب الخطوط الأمريكية ، أو الموت هنا ، كما يموت الألماني الشجاع ، كما يموت جنودنا الأبطال على كل الجبهات . وداعًا.

كان في فناء المبنى سبع سيارات مرسيدس ، تلمع رغم الغبار ، قادرة على حمل بقية الموظفين إلى قرى الغرب ، إلى حياةٍ قد تبدأ من جديد . لكن الرجال ، وقد أدركوا أن جوبلز ذاهب بزوجته وأطفاله ليموت إلى جوار زعيمه ، قرروا ألا يكونوا أقل بطولة ولا

أدنى فداء . توزعوا على جنبات المبنى ، يدافعون عنه شبرًا شبرًا ، حجرًا حجرًا ، كأنهم يدافعون عن معنى لا عن جدران.

وانطلقت سيارتا جوبلز نحو المستشارية ، تلك التي شهدت على مدى عشرة أعوام مجد الرايخ الثالث ، وسطوته الأوروبية التي لا تُنازع . واليوم ، تنهال عليها الطائرات المعادية ، كما تنهال الضباع على أسدٍ جريح ، راقدٍ في العراء ، ينتظر الرصاصة الأخيرة.

وصلت السيارتان إلى فناء المستشارية . هرع الركاب إلى الدرج المؤدي إلى القبو الخرساني ، ذلك الرحم الحجري الذي انكمشت فيه بقايا الإمبراطورية . اتجه جوبلز فورًا إلى مكتب زعيمه ، وقلبه يخفق لا رهبةً بل اعترافًا أخيرًا.

بادره هتلر ، بعينين غائرتين وصوتٍ يشوبه الضيق:

لا أدري كيف يفكر هؤلاء الناس يا بول. كايتل وبورمان ودكتور ، يصرّون على أن أغادر برلين إلى أوبرسالتسبرغ فورًا . كيف بالله أغادر برلين ولا أقاسم أهلها حر الغارات ؟ قل لهم يا بول إنهم مخطئون. قل لهم ألا يطلبوا ذلك مني أبدًا، مفهوم ؟ أبدًا.

كان جوبلز يصغي ، وفي داخله صراع يشبه ارتطام الأمواج بجدارٍ آيل للسقوط. قال بعد ترددٍ ثقيل:

اسمح لي يا فوهرر ، أن أضم صوتي إلى صوتهم . إن بقاءك هنا ليس في مصلحة البلاد . لم أعترض قط في أي لحظة من حياتي على قرار اتخذته ، ولكن حياتك ، أثمن من أن تقيّدها الطاعة الآن.

ابتسم هتلر ابتسامة شاحبة ، وقال بلهجة قاطعة :

كلا يا بول. مصلحة البلاد في بقائي . لو غادرت هذا المكان الذي يربط الفرق الألمانية الشجاعة بعضها ببعض ، لانفرط عقد الجيش المدافع عن العاصمة . مغادرتي هذا القبو تعني نهاية ألمانيا.

لكن العدو يلتقط رسائلنا الآن يا فوهرر،

وما الفائدة ؟ نحن نذيع على موجات جديدة. لا يعني هذا أنهم لا يلتقطون الكثير ، لكن اتصالاتنا مع الجبهة الغربية شبه مقطوعة ، أما الجبهة الشرقية ـ وهي ما تهمنا الآن ـ فلا تزال متماسكة. يا جوبلز ، إن قدر لي أن أموت هذه الأيام ، فلن أموت إلا هنا ، في هذا القبو.

ساد صمت كثيف . في رأس جوبلز دوى سؤال لم ينطق به : هل هذه بطولة أم عناد ؟ فداء أم انتحار تاريخي ؟ لكنه لم يسمح للفكرة أن تكتمل.

قال بصوتٍ خاشع ، كمن يقدم قربانًا:

فوهرر ، سيشرفني ، ويشرف كل ألماني ، أن أقرن مصيري ومصير زوجتي وأطفالي بمصيرك.

انتفض هتلر فجأة ، وكأن في الكلمات وخزًا غير متوقع:

لا يا جوبلز. دع الصغيرات يرحلن الآن إلى مكان آمن قبل فوات الأوان. هذا أمر ، وقد يكون آخر أمر أصدره إليك.

في تلك اللحظة ، غاص جوبلز في أعماق نفسه. رأى حياته كلها تمر أمامه : الخطيب المفوّه ، وزير الدعاية ، مهندس الوهم الجماعي ، صانع الأسطورة . سأل نفسه : إن نجت أطفالي ، فبأي وجهٍ أعيش ؟ وإن عشت ، فهل يبقى للولاء معنى ؟ كان يعرف أن التاريخ لا يرحم، لكنه كان يؤمن - أو يتوهم = أن الموت مع الفكرة يخلّدها.

رفع رأسه ، وقال بهدوءٍ مخيف:

يؤسفني يا فوهرر ألا أطيع هذا الأمر ، وسيكون هذا آخر أمرٍ لك أعصاه.

لم يرد هتلر. اكتفى بنظرة طويلة ، نظرة رجلٍ أدرك أن الدائرة اكتملت ، وأن القبو لم يعد مأوى ، بل شاهد قبر. خارج الجدران كانت برلين تحترق ، وداخلها كانت فكرة كاملة تستعد للانطفاء ، لا بضربة عدو ، بل بثقل تناقضاتها.

وهكذا، في ذلك القبو الخرساني ، لم تكن النهاية نهاية رجلين فقط ، بل نهاية عصرٍ ظن نفسه خالدًا ، فإذا به ينهار ، كما تنهار الأساطير حين تصطدم بالواقع ، وكما يسقط الشعر حين يجفّ المعنى.

قبو النهاية، حين حاور الظلُّ صاحبه

كان القبو الخرساني الراقد تحت حديقة المستشارية أشبه برحمٍ حجريٍّ مظلم ، لا يلد إلا الخوف ، ولا يحتضن إلا النهاية. اثنتا عشرة غرفة متوسطة المساحة في الطابق السفلي ، تتراصّ جدرانها كأضلاع قفصٍ صدئ ، تتنفس بصعوبة تحت وطأة القنابل ، وتئنّ مع كل ارتجاجٍ كأنها تشارك ساكنيها ارتعاش المصير . هناك ، في أعمق نقطةٍ من الأرض ، حيث يختلط العرق بالخرسانة ، والأنفاس برائحة الوقود والعفن ، أقام الفوهرر وأركان حربه وزوجاتهم ، كأنهم نزلوا إلى باطن التاريخ هربًا من حكمه ، فلم يجدوا فيه إلا مرآةً قاسية.

أما الطابق الأعلى ، فكان أشبه بممرٍّ طويل من القلق ؛ ثماني عشرة غرفة ضيقة ، لا تزيد مساحة الواحدة منها عن تسعة أمتار مربعة ، كأنها قبور مؤقتة تنتظر أسماء شاغليها . هنا يقيم المساعدون والمستشارون ، وجوه شاحبة ، عيون مسهّدة ، وأحلام تتساقط كالأوراق اليابسة . ولجوبلز وأسرته أُعدّت ثلاث غرف في الطابق السفلي ، ملتصقة بغرف هتلر وصاحبته إيفا براون ، في دلالةٍ صامتة على قربٍ سياسيٍّ ونفسيٍّ لا تخطئه العين.

كان الثاني والعشرون من أبريل، يومًا ثقيلاً كرصاصةٍ في الصدر. الموقف العسكري بلغ حدّ الحرج ، لا بل تجاوز الحرج إلى حافة الانهيار. جاءت تقارير الجبهة الشرقية كالنعيّ:

الخطوط قد تنهار في أية لحظة تحت ضغط الجيش الروسي.

حين وصلت الكلمات، لم تكن مجرد حبرٍ على ورق ؛ كانت مطارق تهوي على الرأس . في تلك اللحظة ، لم يعد القبو مجرد ملجأ ، بل صار محكمةً للتاريخ ، يجلس فيها هتلر قاضيًا ومتهمًا في آن.

تقدم جوبلز ، صوته مبحوح ، وعيناه تلمعان بدموعٍ لم يعتد أن يراها أح د. قال ، وهو يكاد ينكسر :

أتوسل إليك يا فوهرر أن تغادر برلين اليوم.

كانت كلمة ،أتوسل، غريبة على لسانه ؛ لم تكن من معجم الدعاية ولا من قاموس الخطابة ، بل من لغة العاجزين حين يكتشفون فجأة أن الكلمات لا توقف الجيوش.

رفع هتلر رأسه ببطء ، كمن يخرج من أعماق فكره لا من مقعده . نظر إلى جوبلز نظرةً حادة ، وقال بصوتٍ جافٍّ كحد السكين :

مستحيل. تكلمنا في هذا من قبل يا جوبلز. أنت تعرف أنني قررت أن أنتحر إذا لم يعد في إمكاني أن أحقق النصر لبلادي . فهل تريدني أن أقع في يد العدو ؟ أن أُعرض في قفص ، في شوارع موسكو ولندن ونيويورك ؟

كان صوته يرتفع وينخفض كأمواج بحرٍ هائج ، لكنه في عمقه كان يرتجف . في داخله ، كانت الأفكار تتصارع:

أنا التاريخ ، أم أنا ضحيته ؟ أنا القائد الذي حرّك الملايين ، أم الأسير الذي تحاصره غرفٌ ضيقة ؟

تردد السؤال في رأسه كسجعٍ داخليٍّ مرير :**نصرٌ أو نحر ، مجدٌ أو قبر.**

أجاب جوبلز بسرعة ، كمن يريد أن يقطع سلسلة الأفكار قبل أن تخنقه:

لا ، لن يحدث هذا أبدًا يا فوهرر.

ابتسم هتلر ابتسامةً باهتة ، وقال :

حسنًا، إن خروجي من هنا معناه وقوعي في أيدي الأعداء.

لم تكن جملة ، بل حكمًا نهائيًا.

لم يبقَ في القبو رجلٌ عظيم المقام ، ولا سيدةٌ لها عند الفوهرر مكانةٌ ملحوظة ، إلا وتوسلوا إليه أن يغادر القبو مع خطيبته إيفا . كانت إيفا صامتة ، تراقب المشهد بعينين زرقاوين تخفيان خوفًا أنثويًا عميقًا . في داخلها ، دار حوارٌ لا يسمعه أحد:

أأنا حبيبة الرجل الأقوى في أوروبا ، أم رفيقة رجلٍ محكومٍ بالموت ؟ هل الحب أن أموت معه ، أم أن أعيشه بدونه ؟

وفي ساعة حماسٍ يائس ، نسي الماريشال جودل نفسه ، فاندفع صارخًا:

إني جندي يا فوهرر ! أعطني قيادة الفرق في الجبهة الشرقية ، وأصدر لي أوامر صريحة بالقتال حتى الموت . أعدك أن أمنع العدو من التسلل إلى برلين حتى تخرج من ألمانيا كلها آمنًا.

كان صوته صادقًا ، لكنه كان صدىً متأخرًا لزمنٍ انتهى.

فصاح هتلر في غضب ، وقد احمرّ وجهه ، وارتجفت شفتاه:

ما هذا أيها السادة ؟ هل أفقدتكم الهزيمة عقولكم ووقار الجندي الجرماني ؟ لن أغادر هذا المكان مهما حدث إلا جثةً هامدة ! فلا يحدثني في الأمر أحد منكم بعد اليوم.

ساد الصمت. صمتٌ ثقيل ، كأنه سجع الموت مع الحياة ، جناس الخوف والوفاء ، موسيقى النهاية التي لا تحتاج إلى عازف.

للمرة الأخيرة ، حاولت الطيارة الألمانية الشهيرة حنا رايتش إقناعه . دخلت بخطواتٍ ثابتة ، رغم أن قلبها كان يخفق كجناحي طائرةٍ تحت القصف . قالت ، وعيناها تلمعان بعناد الطيارين:

أقسم لك يا فوهرر إن في استطاعتي أن أخترق الدفاع الجوي كله بطائراتي ، حتى الساحل الأفريقي الغربي ، حيث تنتظرك إحدى الغواصات الألمانية لتحملك إلى الأرجنتين.

كانت كلماتها تحمل وعدًا بالفرار ، لكن هتلر سمع فيها إدانةً مستترة.

أجابها بهدوءٍ غريب ، كهدوء من اتخذ قراره منذ زمن:

لا فائدة يا حنا، لقد قرّ عزمي.

وفي داخله ، كان الحوار أشد قسوة:

الفرار خيانةٌ للصورة التي صنعتها لنفسي. أنا الرمز ، والرمز لا يهرب . إن متُّ هنا، سأصير أسطورة ؛ وإن عشتُ هاربًا ، سأصير نكتة.

هكذا، في ذلك القبو الخرساني ، تلاقت السياسة بالفلسفة ، والجنون بالإيمان ، والدراما بالتاريخ . لم يكن المكان مجرد غرفٍ وجدران ، بل كان عقلًا جمعيًّا ينهار ، وروح أمةٍ تبحث عن معنى وسط الركام . كان كل شخصٍ هناك يحمل حربه الخاصة ، لكن هتلر وحده كان يحمل حرب العالم في رأسه.

وفي ذلك القرار، الذي بدا عنادًا وكان في حقيقته هروبًا أخيرًا إلى الموت ، كتب الفصل الأخير من مسرحيةٍ دموية ، عنوانها :**حين ظنّ الإنسان نفسه قدرًا ، فاكتشف أنه مجرد صفحةٍ في كتاب الزمن.**

قبو الرماد: مرثية الرايخ الأخير

في الثامن والعشرين من إبريل ، حين كانت برلين تلفظ أنفاسها الأخيرة تحت زحف المدافع الشرقية ، وحين صار الليل نهارًا من شدة اللهب ، والنهار ليلًا من ثقل الدخان ، اجتمع من تبقّى من رجال الرايخ في القبو الخرساني العميق ، ذلك الرحم الحجري الذي احتموا به من قصف السماء ، ولم ينجُ بهم من قصف التاريخ.

كان القبو أشبه بقبرٍ جماعي مؤجَّل ، جدرانه عارية إلا من خرائط ممزقة ، وساعاته المعلقة لا تشير إلى الزمن بل إلى العدّ التنازلي للعدم . في قاعة الاجتماعات ، جلسوا في صمت ثقيل ، صمتٌ يقطعه أزيز المراوح ، وارتجاف المصابيح ، ووقع القذائف البعيد القريب ، كأنه نبض قلبٍ يحتضر.

دخل هتلر.

لم يكن ذاك الخطيب الذي ملأ الساحات ذات يوم ، ولا ذلك الزعيم الذي كانت الجماهير تهتف باسمه حتى البُحَّة . دخل رجلٌ قصير القامة أمام جبروت النهاية ، شاحب الوجه ، ترتجف يده اليمنى كغصنٍ في ريح خريف ، عيناه غائرتان ، لكن فيهما بريقًا أخيرًا ، بريق العناد، لا الأمل.

جلس.

ساد الصمت.

ثم قال بصوتٍ خافت ، لكنه قاطع كالسيف :

ليس في جدول أعمالنا بندٌ سوى واحد ، تنظيم عملية الانتحار.

ارتجّ القبو .لم تهتز الجدران ، بل النفوس.

تابع ، وكأنه يقرأ وصية مكتوبة في أعماقه منذ زمن:

إنني أُحلّكم جميعًا من وعودكم لي ، وللرايخ الألماني. من أراد أن يغادر القبو فليفعل ذلك قبل فوات الأوان. ولكن،

وتوقف لحظة ، رفع رأسه ، مسح الوجوه المتجهمة بنظرة فاحصة ، ثم أردف:

أرجو ألا يكون ذلك فرارًا ، بل خروجًا لعملٍ فيه فائدة للشعب الألماني في هذه المحنة.

كان صوته يخون صاحبه ، لا ضعفًا ، بل تعبًا. تعب رجلٍ ظنّ نفسه قدرًا ، فاكتشف أنه بشر.

أما أنا ، فقد قررت الانتحار فور اقتراب العدو من شرق برلين . وأرجو ألا يحاول أحدكم أن يثنيني عن عزمي ، إلا إذا كان عدوًا للبلاد ، لا يريد لها إلا العار .

سكت ، ثم قال بمرارة ممزوجة بالكبرياء:

لا يداخلنّكم شكّ في أن العدو يتمنى القبض علينا ، وتلويثنا جسدًا وروحًا بكل ألوان المذلة والمِهنة.

في داخله ، كان صوته الآخر يصرخ:

لن أكون عرضًا في سيرك المنتصرين ، لن أُساق كوحشٍ جريح ، لن يروا ضعفي ، الموت أهون من مرآتهم.

تنحنح ، وكأن القرار اكتمل:

لم يعد هناك ما يُقال. أريد إتلاف جثتي وجثة إيفا براون، بحيث يغدو من المستحيل التعرف عليهما.

رفع نظره إلى الرجل الأقرب إليه ، إلى وزير دعايته ، رفيق السقوط:

جوبلز.

أجاب جوبلز ، واقفًا ، بصوتٍ مكسور لكنه مطيع:

أجل، يا فوهرر .

إذا كلّفتك بمهمة الإشراف على حرق الجثتين حرقًا كاملًا نهائيًا ؟

لم يتردد:

أجل ، يا فوهرر.

لحظة صمت .

ثم قال هتلر ، بنبرة غريبة ، أقرب إلى الهدوء منها إلى الجنون:

حسنًا. سأعقد قراني الآن على خطيبتي ، الآنسة إيفا براون. سنتبادل كلمات الوداع بعد عقد القران. شكرًا ، شكرًا لكم.

خرج، تاركًا خلفه رجالًا تكسّرت في صدورهم الأوامر ، وتهشّمت في عقولهم الأساطير.

*

في اليوم التالي ، وفي قبوٍ تحوّل فجأة إلى كنيسة صغيرة بلا قداسة ، عُقد القران. لم تكن هناك موسيقى ، ولا زينة ، ولا ضحكات . فقط شهودٌ بوجوه شاحبة ، وكؤوس نبيذ رُفعت كأنها نخب للموت لا للحياة.

إيفا براون ، بثوبٍ بسيط ، ابتسمت.

ابتسامة امرأة اختارت المصير ، لا الرجل فقط.

همست لهتلر :

على الأقل ، نموت معًا.

نظر إليها طويلًا . و في داخله قال:

ألم أعدكِ بعالم ؟ لم أمنحكِ سوى نهاية.

بعد انتهاء الحفل، تبادلوا الأنخاب ، أنخابًا فارغة من الفرح ، مثقلة بالرماد . ثم انسحب جوبلز إلى غرفته ، غرفة ضيقة ، فيها مكتب خشبي ، وورق ، وقلم. جلس ، وتنهد ، وبدأ يكتب وصيته ، تلك التي سيعثر عليها الجيش الروسي في الأول من مايو ، بعد أن يصير القبو أثرًا بعد عين.

كتب ، وكأن كل كلمة اعتراف ، وكل سطر دفاع أخير عن معنى كان يتهاوى:

لقد أمرني الفوهرر أن أغادر وأسرتي إلى برلين ، وأقوم بعمل المستشار لنائبه ، الماريشال غورينغ ، في حالة انهيار الخطوط الشرقية لدفاعات برلين . وإني لأول مرة في حياتي أرفض إطاعة أمرٍ أصدره إليّ صديقي وزعيمي ، الفوهرر،

توقف. نظر إلى السقف. ثم إلى صور بناته الست.

هل هذا وفاء ؟ أم عمى ؟

سؤال لم يسمح له أن يكتمل.

تابع:

لقد أيدني في هذا الرفض كل من زوجتي وبناتي الست . ولو أنني فعلت غير هذا ، لكنت جبانًا رعديدًا ، خائنًا لا يعرف الوفاء للرجل العظيم الذي قادنا إلى النصر والمجد،

كان يكتب، ويبرر ، ويقنع نفسه أكثر مما يقنع التاريخ.

ولو صمت ما بقي لي من عمر بوصمة عار الخيانة ، والتجرد من الشرف ، والانحطاط الخلقي ، الذي يحاذر كل جرماني أصيل من الوقوع في حمأته،

توقف ثانية .همس لنفسه:

هل الشرف أن نموت ؟ أم أن نعيش ونرى الحقيقة؟

لكنه طرد الفكرة ، كما طرد غيرها من قبل.

صار حتمًا أن يبقى بجانبه ويقاسمه المصير كل من أحبه ، وفاز يومًا بثقته وحبه. أن أبقى بجانبه دون تردد حتى الموت ، ولو كان في البقاء عصيانًا واضحًا للأوامر الصريحة التي أصدرها لنا بمغادرة القبو،

كان صوته الداخلي يرد :

العصيان الوحيد الآن هو التفكير.

لهذه الأسباب ، فإني وزوجتي ، وباسم بناتي الصغيرات ، اللاتي لو بلغن سن الوعي السياسي لما ارتأين غير ما ارتأيت أنا وزوجتي لهن ، قد عزمنا عزمًا لا يتزعزع ولا يلين على عدم مغادرة برلين،

هنا، ارتعشت يده . توقف طويلًا .نظر إلى القلم، كأنه سكين.

سنبقى بجانب الفوهرر إلى أن يغادر هذه الحياة مع زوجته إلى العالم الآخر ، جميعًا: أنا، وزوجتي ، وبناتي الست الصغيرات.

وضع القلم.أغلق الورقة.

وساد صمت، أعمق من القصف ، وأقسى من الهزيمة.

في ذلك القبو ، لم يمت الرايخ فقط ، بل مات وهم العظمة ، وسقطت أسطورة الإرادة أمام سؤال لم يُجب عنه أحد:

هل كان ذلك قدرًا محتومًا ، أم اختيارًا أعمى ؟

كان التاريخ في الخارج يكتب خاتمته بالنار ، وفي الداخل ، كانوا يوقّعون نهايتهم بالحبر والسم.

نشيد الرماد في فجر السقوط

في فجر الثلاثين من إبريل ، كان الزمن في برلين يتكسّر كما يتكسّر الزجاج تحت أقدام الجنود ، وكانت المدينة العتيقة تلفظ أنفاسها الأخيرة بين هدير القنابل وأنين الجدران. القبو الخرساني ، ذلك الرحم الحجري العميق تحت المستشارية ، لم يعد ملجأً من الموت ، بل صار دهليزًا إليه ، ممرًا ضيقًا بين عالمين : عالمٍ انقضى ، وآخر يولد من رحم الخراب.

كان هتلر واقفًا في وسط القبو ، جسدٌ نحيل يلفّه معطف داكن ، ووجهٌ شاحب كأنه قناع من شمع ذائب. عيناه اللتان طالما اشتعلتا بخطابات الجنون ، كانتا الآن بركتين راكدتين ، تسبح فيهما ظلال الهزيمة . نظر إلى الوجوه المحيطة به ؛ وجوهٌ أنهكها السهر والخوف ، وأخرى ما زالت تتشبث ببقايا وهمِ اسمه ، الفوهرر،.

تقدم من حارسه الخاص ، جونشي، ذلك الشاب الذي ربط مصيره برجلٍ صار أسطورة ثم لعنة . وضع هتلر يده على كتفه ، وكانت يده باردة ، باردة كحجر شاهد قبر.

قال بصوت خافت ، لكنه حاسم كحد السكين:

هذا آخر أمر أصدره لك يا جونشي. سأقوم ، تحت إشراف الهر دكتور غوبلز ، بإحراق جثتي وجثة زوجتي فور موتنا. لا يجب أن يعوقك أي شيء عن تنفيذ هذا الأمر .

لم يكن في الكلمات تردد ، ولا في النبرة رجاء . كان الأمر وصية موت ، مختومة بختم النهاية . انحنى جونشي ، لا إجلالًا ، بل عجزًا ، وقال:

سأنفذ، سيدي .

دخل هتلر غرفته . هناك كانت إيفا براون تنتظره ، بثوبٍ بسيط ، وابتسامةٍ شاحبة تحاول أن تكون وداعًا لا صرخة . نظرت إليه ، فرأت الرجل الذي أحبته ، لا الزعيم الذي عبدته الجماهير . اقتربت منه ، وقالت بهدوءٍ يكاد يكون سماويًا:

أخيرًا سنرتاح ، أليس كذلك ؟

لم يجب. كان صامتًا ، يغوص في داخله كما يغوص غريق في ذاكرته. رأى نفسه شابًا في فيينا ، جائعًا ، مهزومًا ، ثم رأى الحشود تهتف ، والرايات ترفرف ، والخرائط تتسع ، ثم تنكمش ، حتى صارت بحجم هذا القبو.

عند الساعة الثانية بعد الظهر ، انشق الصمت. دوّى صوت الرصاصة، رصاصة واحدة ، لكنها كانت أثقل من ألف قنبلة . في القبو ، تجمّدت الأنفاس ، وتوقّفت القلوب لحظة ، كأن الزمن نفسه أصيب بالذهول.

دخل بورمان وجونشي غرفة الموت . كان هتلر ملقى على الأرض ، جسده ملتفّ في وضعٍ غير لائق بتاريخٍ ملطخ بالدم . الرصاصة اخترقت حلقه ، كأنها أرادت أن تسكت ذلك الصوت إلى الأبد . وعلى الأريكة ، كانت إيفا قد سبقت الجميع إلى العد م، قرصٌ صغير من سيانور البوتاسيوم فتح لها باب الخروج من الحياة بلا ضجيج.

صرخ غوبلز ، صرخةً أقرب إلى أمرٍ عسكري يائس:

جونشي ، لننفذ على الفور أوامر الفوهرر!

حُملت الجثتان إلى حديقة المستشارية . كانت السماء تمطر نارًا، والقنابل تعزف سيمفونية الخراب فوق برلين الجريحة . أُلقيت الجثتان ، وسُكبت عليهما الوقود ، واشتعلت النار. تصاعد الدخان ، واختلط الرماد بالهواء ، كأن التاريخ نفسه يحترق ، صفحةً صفحة.

وفي أعماق القبو ، كان مشهد آخر يتشكل ، أكثر قسوةً ، وأشد فظاعة. حاول الدكتور شولجرمان ، بصوتٍ مرتجف وقلبٍ يفيض إنسانية ، أن يثني السيدة ماجدا عن قتل صغيراتها. قال ، وهو يكاد يبكي:

سيدتي، أرجوكِ، الأطفال لا ذنب لهم، الحرب انتهت .

نظرت إليه ماجدا ، بعينين غائرتين ، لكنهما كانتا ثابتتين كقدرٍ لا يلين. قالت بتأثرٍ حزين:

لا يا عزيزي. لا يجب أن يبقى أحد منا على قيد الحياة. لا تظن أنني لم أفكر في الأمر طوال الأيام العشرة الماضية. هكذا أفضل، هكذا أرحم.

كان كلامها يحمل منطقًا مريضًا ، لكنه كان ، في عقلها ، خلاصًا. عقلٌ تشبّع بالأيديولوجيا حتى صار الموت فيه أهون من الحياة بلا وهم.

رفض جوبلز أن يناقش الأمر كلية. قال ببرودٍ قاتل:

قد انتهى كل شيء يا عزيزي دكتور شولجرمان. الساعة الآن الخامسة. لقد تأخرنا عن اللحاق بالفوهرر. قبل أن أنتحر أنا وزوجتي ، أود أن أطمئن أن بناتي لم يتألمن في لحظاتهن الأخيرة .

دخل شولجرمان غرفة الصغيرات. كانت الوجوه بريئة، نائمة ، لا تعرف أن التاريخ قرر أن يطويها قبل أوانها. قال وهو يحاول إخفاء الحشرجة في صوته:

هذه حقنة للوقاية من التلوث بالتيتانوس في حالة الإصابة بجروح القنابل

كذبة رحيمة ، أو هكذا ظن. لكنه كان يعلم ، في قرارة نفسه ، أن لا رحمة في هذا المكان.

في السادسة تمامًا ، دخل جوبلز وماجدا غرفتهما. تبادلا نظرة أخيرة ، نظرة زوجين قررا أن يموتا معًا ، لا حبًا، بل هربًا. الرصاصة في الحلق للرجل ، والسيانيد للسيدة . وبعدها ، تولّى شولجرمان إحراق الجثتين ، كما أُحرقت جثتا الزعيم وزوجته ، وكما احترقت مدينة بأكملها.

بعد ساعة ، لم يعد في القبو الخرساني أحد. تفرّق من بقي حيًا في أنحاء برلين ، يبحثون عن الأمان بين الأنقاض ، عن معنى جديد لحياةٍ تبدأ من الصفر.

وهكذا انتهى الفصل الأخير من مسرحيةٍ دموية ، كتبها بشر، وأداها بشر ، ودفع ثمنها بشر. بقي الرماد شاهدًا ، وبقي التاريخ يهمس:

إن الجنون حين يتوّج نفسه عرشًا ، لا يسقط وحده ، بل يجرّ خلفه مدينة ، وأطفالًا، وعصرًا كاملًا إلى الهاوية.